حولية كلية البنات
بجامعة عين شمس

العدد الثانى ـ يوليه ١٩٦٠

مطبعة جامعة عين شمس
١٩٦٠

مجلة حولية كلية البنات

رئيس التحرير : الدكتور عبد الحميد سند الجندى

سكرتيرا التحرير : الدكتورة دريه عبد العـــــال ،
والاســـتاذ عبد العـــزيز مطر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

هذا هو العـــدد الثانى من حولية الكلية نقـــدمه ـــ فى تواضع ـــ الى الزملاء الأساتذة ، آملين أن يجدوا فيه قِرًى طيباً لعقولهم وأفكارهم ، وأن يدركوا اننا نخطو حثيثا ـــ على قدر طاقتنا ـــ فى ميدان الثقافة والعلم .

وقد أصدرناه على غرار سابقه من حيث التبويب والتنظيم ، ولكن فيه وثبة جديدة موفقة .. هى احتواؤه على بحث باللغة الانجليزية .

واذا كان لنا ان نرد الفضـــل الى ذويه فاننا لنرى لزاماً علينا أن نزجى الى السيدة الفاضلة الأستاذة فتحية سليمان عميدة الكلية أعمق الشكر وابلغ التقدير على ما قدمته لنا من توجيهات رشـــيدة ، وما بذلته من معونة صادقة فى تذليل العقبات التى كانت تكتنف سبيلنا .

ورجاؤنا من السادة الزملاء ألا يضنوا علينا بارشاداتهم القيمة ، وأن يمدونا بثمار قرائحهم ونتائج عقولهم فى مختلف نواحى المعرفة فى الأعداد المقبلة حتى تكون أوفر حظاً من الخصب والكمال .

ونحن نهيب بمن يجد فى هـــذا العدد نقصاً أو تقصـــيراً أن يُظهرنا على رأيه مشكوراً .

والله نسأل أن يوفقنا لخدمة الوطن والعلم وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا .

رئيـــس التحرير

الدكتور الجندى

فهرس

القسم الأول : الدراسات الأدبية

صفحة

بين التاريخ والأدب

للمرحوم الدكتور عبد الرزاق حميدة ، رئيس قسم اللغات بالكلية ٣

نشأة البحث البلاغى

للدكتور عبد الحميد سند الجندى ، المدرس بقسم اللغة العربية ٢٥

من مدارسنا النقدية

للدكتور ماهر حسن فهمى ، المدرس بقسم اللغة العربية ٥١

القسم الثانى : الدراسات التاريخية

ملكية الأراضى فى الدولة العربية الاسلامية

للدكتور على حسنى الخربوطلى ، المدرس بقسم التاريخ ٦٧

كينيا والحكم البريطانى

للدكتور صلاح العقاد ، المدرس بقسم التاريخ ٨١

تأثير الحضارة الشرقية على الحضـــارة الغربية فى العصور الوسطى

للدكتور كمال فريد ، المدرس بقسم اللغة الفرنسية ١٠٥

القسم الثالث : الدراسات التربوية

اختبار الميل نحو تعلم التاريخ

للدكتورة حكمت ابو زيد ، المدرسة بقسم التربية وعلم النفس ١١٣

التوجيه الفنى (التفتيش) أهدافه ووسائله

للدكتور منير كامل ، المدرس بقسم التربية وعلم النفس ١٤٥

القسم الأول :

الدراسات الأدبية

١ – بين التاريخ والأدب

٢ – نشأة البحث البلاغى

٣ – من مدارسنا النقدية

بين التاريخ والأدب

للمرحوم الدكتور عبد الرزاق حميده
رئيس قسم اللغات

قمت بتدريس الأدب العربى فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، وفى كلية البنات جامعة عين شمس ، ما يقرب من عشرين عاما ، واتصلت فى أثنـاء ذلك بالتاريخ وكتبه ، ولفت نظرى ما هنالك من تفاعل بين التاريخ والأدب وتأثير كل منهما فى الآخر . فقد رأيت التـاريخ يصنع الأدب ويوجهه . ويوحى الى الأدباء ، ويسيطر على أدبهم ، ورأيت الأدب يصنع التـاريخ ، فيقيم دولا ، ويهيج فتنا ، ويخمد أخرى ، ورأيته يعمد الى التاريخ فيستعير منه موضوعاته . ويستمد منه أحـداثه لينسج منها أو حولها صـورا من صوره كالمسرحيات أو القصص أو الروايات أو شبه ذلك .

وقد رأيت اليوم أن أسجل فى هذا المقال ما وقفت عليه من تفاعل بين التاريخ والأدب فى حدود التجربة التى مرت بى فى خلال عملى مدرسا للأدب ثم أستاذا للأدب والنصوص .

وقبل أن أخط سطرا فى هذا الموضوع ، أرى من الواجب أن أشير الى ان هذا الموضـوع قد كتب بايجاز فى كتاب التوجيه الأدبى (المطبعة الأميرية سـنة ١٩٤٠) تحت عنوان الأدب والتـاريخ ص ١١٩ . ولا شك أننى قرأته ولكنى وجـدت الجهد الذى بذلته والتفاصيل التى وصلت اليهـا أكثر بكثير مما هو مسطور هناك . فضلا عن أننى بذلت جهدا ، ووصلت الى حقـائق ، وعرفت شـواهد يعز علىّ أن أهملها أو أدفنها ، وفضلت لهـا أن ترى النور على صفحات هذه المجلة .

فالتاريخ هو قصص منتظم لنشأة أمة من الأمم وتطورها .

صلة التاريخ بالأدب :

وكتابته تعتبر فناً من أقدم فنون النثر الأدبى • وقد اعتبره اليونان فناً من الفنون الأدبيـة التى توحى بهـا آلهة من الالاهات يسمونهـا عنـدهم كليو CLIO • ويظهر أنه كان شعرا أولا حينما بدأ الناس يقصون أنباءهم ، ويتحدثون بقديمهم ويخترعون لأنفسهم قديما لا صلة بينه وبين الحقائق الواقعة ، ولكنهم مع ذلك كانوا يؤمنون به ايمانا قويا صادقا لما كانوا عليه من السذاجة ، وشدة التأثر بالخيال ، فهم قد وصلوا أنسابهم بالآلهة ، وأضافوا لأبطالهم من الأعمال ما لا يصدر عن الناس •

ومن هذا النوع من القصص نشأت الأسـاطير والسير التى كانت ترضى عواطف الناس وخيالهم وعقولهم الناشئة وتحدث لهم من أجل ذلك متعة فنية ساذجة •

وكانت هذه الأخبار تلقى على الناس شعرا منظوما قد تصحبه الموسيقى • وكان الشعراء يحتفلون بهذا الشعر من قرية الى قرية ، ومن مدينة الى مدينة . بل من اقليم الى اقليم • ينشئونه كلما هموا بالانشـاد أمام الجمـاعات • ثم كثر ما أنشأوه من ذلك • وأعجب النـاس به فحفظه منهم أفراد واتخذوا انشاده والتنقل به صناعة يعيشون منها ، ويعتمدون عليها فى كسب الحياة •

وعلى هذا النحو نشأت طائفة من القصص الشعرية ، لم تكن تخلو منها حياة أمة من الأمم القديمة التى تحضرت فيما بعد وقد حفظ من ذلك الألياذة والأودسة عند اليونان • ونحن نعتمد على هذه القصص فى تصوير الحيـاة الأدبية والفنية والتاريخ السياسى والاجتماعى لهذه الأمم فى عصورها الأولى •

وتقدمت الحضارة وعظم السلطان فى بعض الأمم ، فأقيمت الصروح الضخمة، وسجلت الأعمال العامة فى نقوش مطولة ربما تكثر فيها المبالغات ، ويشتد فيها الغلو ، ويصطنع فيها الخيال ، وقد بقيت لنا مقادير كثيرة من هذا الآثار المكتوبة وهذه الكتابات المسجلة على المعابد كانت مصدرا دقيقا من مصادر التـاريخ

أيضا يضاف الى المصدر الآخر وهو القصص الشعبية أى أنه أصبح للتاريخ القديم عندنا مصدران يتصلان بالأدب اتصالا وثيقا ، أو هما من صميم الأدب ، أحدهما شفوى روى ، والثانى مسجل مدون فى لغة أدبية •

وكان اليونان من الأمم التى سجلت تاريخها فى هاتين الصورتين الأدبيتين وكذلك قدماء المصريين •

ثم أخذت كتب التاريخ تظهر فى كلام منثور لا يخلو من تأثير الشعر ، فتكثر فيه الأساطير ويعتمد على الخيال كثيرا ولم يخل أسلوب تلك الكتب من محاولة الوزن والتنغيم الموسيقى • وكانت هذه الكتب وهذه القصص ربما قرئت على الناس كما ينشد الشعر • واذا رجعنا الى كتب كبار المؤرخين عند اليونان والرومان وجدناها تعتمد فى مصادرها على الأدب • فكان هيرودوت يعتمد على الشعر القصصى فى تاريخ اليونان ، وعلى أخبار الرواه والآثار المكتوبة وغير المكتوبة •

كتاب التاريخ لهيرودوت :

وقد عُد كتابه متعة فنية رائعة حقا ، نجد فيه اللذة التى نجدها فى قراءة الشعر القصصى ، وتتجلى قيمة الكتاب من الناحية الأدبية الخالصة فى أنه يُقرأ فى لغته الأصلية ، أو مترجما فتكون قراءته متعة لا يعرف عنها سأم ولا ملل •

وأشهر مؤرخ يونانى بعد هيرودوت هو تيوكوريدس • ويمتاز كتابه من الناحية الأدبية بأن مؤلفه أعرض عمدا عن رواية النصوص الدقيقة لما كان ينطق به الخطباء والزعماء والقادة ، وتكلم هو على ألسنتهم بما يصور مواقفهم وآراءهم ، فأنطقهم بغير ما قالوا ، وأضاف اليهم من الخطب الطوال والقصار ما لم يصدر عنهم ، وهى خطب منحولة • ولكنها تصور آراء أولئك الزعماء والقادة تصويرا صادقا •

ومصدر هذا أن تيوكوريدس عاش فى عصر التمثيل والخطابة والحوار ، ورأى الناس من حوله يذهبون هذا المذهب فينطقون الزعماء والقادة والأبطال

وأفراد النـــاس بألفاظ ينشئونها لهم انشاء ويحملونها عليهم حملا . فأشخاص القصة التمثيلية يصورون الأبطال والزعماء ، وينطقون على ألسنتهم بما يصنعه لهم الشاعر اذا أنشأ القصة . والمتخاصمون أمام القضاء يقولون كلاما قد أعده لهم المحامون اعدادا فحفظوه بعد ذلك حفظا ، وهم يتلونه تلاوة أمام القضاء .

ومهما يكن من شيء فان مذهب تيوكوريدس أنشأ التاريخ فنا أدبيا رائعا ، وأفاض عليه حيوية ، وجعل قراءته متعة لذيذة ؛ وهذه الخطب التي أنشأها تيوكوريدس لم تكن على مثال الخطب التي كانت تلقى في المجالس والمجتمعات ، لم تنشأ لتلقى فتفهم فهما قريبا يسيرا ؛ وانما أنشئت لتقرأ على مهل وفي عزلة ، فلها من الخطب شكلها ومظهرها ، ولكنها في الحقيقـــة كتابة فنيـــة لا خطابة ، اعتمدت على العقل والمنطق والروية أكثر مما تعتمد على الخيال والعـــاطفة ، واتجهت الى العقل والتفكير أكثر مما تتجه الى الحس والشعور ، وكانت بذلك مثلا رائعا للرزانة والرصانة والاعتدال . وقد ذهب المؤرخون بعد ذلك مذهب تيوكوريدس أثناء العصر القديم كله ؛ فأنطقوا الأشخاص بما لم يقولوا ، ولكن قليلا منهم استطاع أن يبلغ من الاجادة والدقة ما بلغه تيوكوريدس . ولم يخالف هذه الســـنة من المؤرخين الذين جاءوا بعـــده الا بوليبيوس . كان مذهب تيوكوريدس أن ينشيء الخطب والمقـــالات الطوال وينحلها الساسة والقـــادة . وكان يتحرى وجه الحق في تصـــوير ما كان يريد تصـــويره من آراء القـــادة والساسة فكان لفظه منحولا ، ومعناه صحيحا . وجاء المؤرخون بعده ففتنهم الفن فتونا ، واخترعوا الخطب والمقالات ألفـــاظها ومعانيها . ، وأضافوها الى القادة والساسة في غير تحفظ ولا احتياط ولا تحر للصواب . حتى كاد التاريخ يكون أدبا خالصـــا ، متأثرا بالخيال أكثر مما يتأثر بالبحث والتحقيق ، ولكن بوليبيوس ألغى هـــذه الخطب والمقـــالات الغـــاء من كتابه ، وألغى الأساطير والأعاجيب .

كتاب التاريخ عند الرومان :

لم ينشأ التاريخ عند الرومان نشأة أدبية كما نشأ عند اليونان ، وسبب ذلك أن الآداب اللاتينية ظهرت فى عصر متأخر بعد أن تقدمت حضارة الرومان وارتقت نظمهم السياسية والاجتماعية • فهذه النشأة عند الرومان لم تتأثر بالشعر القصصى كما تأثرت به نشأة التاريخ عند اليونان •

ولكن لما تقدمت الحياة الرومانية ، واتصلت الرومان بالمدن اليونانية فى ايطاليا ثم ببلاد اليونان الحقيقية ثم بالدول الأجنبية الأخرى فكر الرومان فى ماضيهم وعظمة بلادهم ، ورأوا كل هذا جديراً بالتسجيل وأن تؤلف فيه الكتب ، و لاسيما بعد أن قرأ المثقفون الممتازون من أهل روما ما أنتج اليونان من أدب وفلسفة وتاريخ •

وقد ذهب الرومان فى العناية بالتاريخ مذهب اليونان كدأبهم فى فنون الأدب كلها • فهم قد قلدوا كتاب اليونان وشعراءهم وخطباءهم ، وتأثروهم واتخذوهم لهم أساتذة واتخذوا آثارهم الأدبية نماذج يحاكونها •

كاتو ٢٣٤ — ١٤٩ ق.م :

من أشهر المؤرخين الرومان . وكان أديباً خطيبا — أتقن اللغة اليونانية وآدابها ، وبرع فى الخطابة السياسية والقضائية براعة جعلته مخوفا مهيبا ، وقد شهد حروب روما مع هانيبال وغيرها من الحروب فى صقلية . وكتب كتابا ضخما فى تاريخ روما صور فيه نشأتها تصويرا دقيقا • ولكنه ضاع كما ضاعت خطبه • ولم يبق من آثاره الأدبية الا ما تحدث به النقاد الرومانيون الذين قرءوا هذه الآثار وأعجبوا بها عصورا متصلة • وقد أثر تأثيرا قويا جدا فى أجيال الخطباء الذين جاءوا بعده واتخذوه لأنفسهم نموذجا ومثلا •

وكان له صديق شاعر يونانى عرفه فى بعض أسفاره اسمه كنتوس اينوس ENNIUS وهو من يونانيى ايطاليا ترجم عن عواطفه ومحبته لروما شعرا فى اللغة اللاتينية . وقد طرق اينوس فنون الشعر المعروفة فى ذلك الوقت فمدح وهجا

ووضع القصص المحزنة والمضحكة . وكتب لروما تاريخا بالشعر فى ديوان ضخم ذهب فيه مذهب هوميروس فى النظم فاختار الوزن اليونانى للشعر القصصى ، ولكنه لم يذهب مذهب الخيـال المطلق ، وانما قيد نفسه بالدقة وايثار الحق ما استطاع .

وكان اينوس يعتقد أن نفس هوميروس قد حلت فيه ، وأنه يعرب عن هذه النفس باللغة اللاتينية ويقول النقاد والقدماء انه وان قصر عن البراعة الفنية التى امتاز به شعر هوميروس ، فانه قد أدخل فى الشعر اللاتينى وزنا جديدا ، ونظم التاريخ الرومانى نظما رائعا ، كان النـاس يستحبونه ، ويعجبون به أشـد الاعجاب .

ثم خمدت كتابة التـاريخ بعد كاتو واينوس لاعراض الرومان عن الفنون الأدبية وانصرافهم عنها الى الحياة العملية فى الحرب والسياسة والتجارة والزراعة والمال حتى جاء القرن الأول قبل المسيح ، فظهر فى الأدب اللاتينى علمان من أعلامه ، كتبا فى التاريخ فبلغا حظا عظيما من الاجادة والاتقان . أحدهمـا بوليوس قيصر والآخر سلوستوس SALLUSTUS .

قيصر :

ولد قيصر سنة ١٠٢ ، ومات سنة ٤٤ ق.م. وكان عظيما فى حياته وفى كل ما تولى من أعمـال . وقد عنى به تاريخ الأدب ، لأنه كان من عظماء الرجال فى الأدب ، وفى التاريخ خاصة .

وقد أقبل قيصر على الأدب منذ شبابه ، وكان من الخطباء البارعين ، لأنه اشترك فى الحياة العامة وهو شاب ، ولم يقتصر نبوغه فى الأدب على الخطابة ، بل تعداها الى الجدل ، والخصومة السياسية والأدبية العنيفة ، وكان شاعرا لبقا مترفا ينظم شعرا جيدا رقيقا ، وكان نحويا لغويا يؤلف فى النحو واللغة أثناء سفره الى بعض حروبه ، ثم هو بعد هذا كله مؤرخ من أبرع المؤرخين . لا فى اللغة اللاتينية وحدها ، بل فى كل اللغات التى كتب فيها التاريخ قديما وحديثا ،

فأثره فى التاريخ أدبى تفخر به اللغة اللاتينية . وتستمتع به الانسانية المثقفة كلها على اختلاف العصور . كتب قيصر تاريخه بشكل مذكرات وصف فيها حروبه فى غالية GOLLIA (فرنسا) ووصف فيها بلاءه فى الثورة التى انتهت به الى الدكتاتورية .

وقد فتن الناس فى عصره وبعد موته بهذا التاريخ فتنة عظيمة ؛ وأسرع بعض الكتاب الى تقليده ، فألفوا الكتب فى وصف حروبه ، ونسبوها اليه ابتغاء الرواج ، ولكنهم لم يخدعوا أحداً ؛ لأن تقليد قيصر لم يكن يسيرا .

أسلوبه :

وأهم ما يمتاز به أسلوب قيصر فى هذا التاريخ أنه يروع ببراءته من التكلف وأنك تقرؤه فكأنما تسمع لمتحدث يتحدث اليك فى سهولة ويسر ، لم يتهيأ لهذا الحديث . وهو مع ذلك يضع ألفاظه فى أحسن مواضعها ، ويؤدى بها أصدق المعانى وأعظمها حظاً من القصد والصدق والاعتدال ، وحسن التفكير والتقدير ؛ وأسلوبه من السهل الممتنع يشق على الذين يريدون محاكاته ، ثم هو رائع بعد ذلك بما فيه من الصور التى يعرضها صاحبه لما رأى ولما أثار من حروب ، ولما كان بينه وبين خصومه من نزاع ، ولما دار بينه وبينهم من حديث .

وكتابته مملوءة بالحياة القوية ، يصف الموقعة من المواقع ، فترى الجيوش وهى تتحرك وهى تكر وتفر ، ويصف خططه فيسوق الحديث على سجيته فى لغة سهلة الى أقصى غايات السهولة موجزة ، بريئة من الفنون الرومانية التى ورثها الرومان عن اليونان . وقد اختلف قراؤه فى أسلوبه ، ولكن الذين أعجبوا ببعده عن الزخارف والتكلف كانوا أكثر عددا ، وكان شيشيرون لا يعدل بكتابة قيصر شيئاً .

سالستوس ٨٦ - ٣٦ ق.م :

له كتاب فى تاريخ روما ، يمتاز ببراعته فى التصوير ، وفى تصوير الأفراد خاصة ، والتعمق الى دقائق النفوس ودخائل القلوب . فى لفظ رائع وأسلوب

بارع ، وقد عد من عيوبه اسرافه فى التكلف ، وتتبع الغريب ، وتقليد الأسلوب اليونانى ، ولكن من أهم الأسباب التى أبرزت عيوبه معاصرته لقيصر والموازنة بينهما ، فبدا قيصر سهلا غير متكلف .

وهناك مؤرخان آخران يصوران مجد الآداب اللاتينية فى التاريخ هما « تيتوس ليفيوس » و « تاسينس » وأولهما يشبه هيرودوت ، والثانى يشبه تيوكوديدس .

تيتوس ليفيوس ٥٩ ق.م — ١٨ م :

كتب أكبر كتاب فى تاريخ روما منذ نشأت روما الى حروب أغسطس فى اثنين وأربعين ومائة جزء ، وقد تلقفه الناس وفتنوا بكل جزء كان يصدر منه ، فى ايطاليا ، وفى الأقاليم البعيدة ، حتى لقد قيل ان بعض الناس رحل من اسبانيا الى روما ليرى المؤرخ العظيم . وكفاه هذا من رحلته .

واذا كان كتاب هيرودوت غناء منثوراً لمجد اليونان ، فقد كان كتاب ليفيوس اشادة رائعة بمجد الرومان ، وكان كل منهما مدفوعاً فى كتابته بحبه لوطنه ، لا يتكلف الثناء والاطراء ، وقد خلق كل منهما قاصاً بطبيعته ، وكان حظه من قوة الخيال والشعر غير المنظوم أعظم من حظه من قوة العقل والميل الى التحقيق والتمحيص . فكثرت الأعاجيب والأساطير فيما كتب كل منهما ، وكان يساعد كلا منهما على ذلك أنهما كانا يجدانها فى حياة الشعب وأحاديثه ، وفيما صور الشعراء وسجل الكتاب ، وكان كل منهما يقبل ما يأتيه من ذلك ، ويصوره تصويراً أنيقاً ويستخرج العبرة منه ، ويجعله مصدراً للذة القلب وفائدة العقل جميعاً .

بل ان كلا منهما كان يندفع بحبه الشديد لوطنه الى ظلم التاريخ على غير عمد . يبالغ فى الانتصار ، ويهون من أمر الهزائم أو يهمل هذه الهزائم أحياناً ؛ وكان هيرودوت من الذين أنشأوا النثر اليونانى ، وأول من طوله ومهد سبله ، أما ليفيوس فقد جاء بعد أن تم تكوين النثر اللاتينى . بل بعد أن انتهى الى

أقصى غايات الرقى ، فظهر فيه قيصر وشيشيرون وغيرهما من الكتاب والخطباء ، فكانت مهمة الكاتب الرومانى أيسر من مهة الكاتب اليونانى هيرودوت . كما كانت مصادر التاريخ من محفوظات الدولة ومن الشعر والخطب ، وكتب التاريخ ميسورة للمؤرخ الرومانى « ليفيوس » فكان ذلك سببا فى فراغه لفنه ، وكان كاتبا مجودا يعنى بأسلوبه عناية خاصة ويذهب به مذهب الخطباء فينحدث الى أذواق الجماعات وقلوبها ، وكان يعنى باللفظ ويتخيره كما كان يعنى بمخاطبة العاطفة والخيال ، وقد أنطق الخطباء والساسة بخطب وأقوال لعلهم لم ينطقوا بها أبدا .

تاسيتوس ٥٤ — ١٢٠ م :

اشتغل بالمحاماة زمنا ، وألف فى التاريخ كتبا أولها تاريخ القائد الرومانى أجريكولا AGRICOLA ويعتبر هذا الكتاب آية من آيات البيان اللاتينى ، صور البطل تصويرا رائعا ، وصور حياته النفسية التى كانت تقوم على الجلد والصبر والثبات للخطوب .

وله كتاب ثان فى أخلاق الجرمانيين ، وهو على ضآلة حجمه ، ذو قيمة ممتازة ، دقيق كل الدقة ، صادق فى التصوير كل الصدق .

وكان سيتوس يشبه تيوكوديدس عند اليونان فى بعده عن القصص وزهده فى الأساطير ، وحرصه على الايجاز وتعمقه للأشياء ، وتحريه للحق ، وكان قوى التصوير ، ولا سيما حين يصور الظلم والطغيان . ويعد تاستوس من أبرع كتاب النثر فى أى لغة من اللغات ، وهو من أجل هذا يكلف قارئه جهدا كبيرا ، ويمتع عقله ، ولكن هذا الجمال الرائع البادى فى كتابته كان آخر الضوء الذى يؤذن بخمود المصباح .

التاريخ عند العرب

لم يكن عند العرب فى جاهليتهم تاريخ مدون ، ولكنهم كانوا يعرفون ما كان عليه أسلافهم وبعض مجاوريهم من الأحوال المأثورة ، وأيامهم المشهورة ، وهى

كغيرها من أخبـار الأمم القديمة بعضها صحيح ، وبعضها حديث خرافة ، وقد جاءنا منها شيء غير قليل فى شـعرهم ونثرهم وأمثالهم كقصة الفيل ، وحرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس بين بكر وتغلب ، ويوم ذى قار بين العرب والفرس ، وحرب الفجار .

وجاء الاسلام وجاء فى القرآن كثير من أخبار السابقين ، وكانت حيـاة الرسول صلى الله عليه وسلم حافلة بجلائل الأعمـال ، وكانت غزواته ، وكان فيها من المسلمين أبطال ، وحارب خلفاؤه من بعـده لنشر الدين والدفاع عن العقيدة ، وكانت لهم حروب فى البلاد المجاورة لهم ، وبعد فترة من الزمن عنوا بتدوين ذلك كله عناية فائقة ، وظهر فيهم مؤرخون كثيرون حتى أحصى بعض المستشرقين مؤرخيهم فى الألف السنة الأولى من الهجرة فبلغوا ٥٩٠ مؤرخاً ، عدا من فاته منهم .

وسلكوا فى كتابة التاريخ طرقا شتى ، فمنهم من ترجم لحياة شخص ، ومنهم من ترجم لجماعة ، ومنهم من ترجم للعلماء الذين من بلد واحـد ، ومنهم من ترجم لمشاهير الرجال أو لطائفة خاصـة من العلمـاء أو الوزراء أو الأمراء أو الشعراء أو الأدباء . ومنهم من ألف فى فتوح البـلدان ، أو كتب تاريخ قطر ، أو عصر أو بلد . ومنهم من أرخ تاريخاً عاماً كما فعل الطبرى فى كتابه ، أخبار الرسل والملوك ، وكما فعل ابن الأثير فى كتابه المسمى « الكامل » .

وهكذا تنوعت كتب التاريخ عند العرب تنوعاً كبيراً .

وبدأ التاريخ الاسلامى بالعناية بالسيرة النبوية ، وقد تأثر هذا النحو من التاريخ بكتب الحديث من حيث الاسناد ومن حيث اللغة ، ونمط التأليف .

واتجهوا بعد ذلك الى تاريخ الحوادث الاسلامية كموقعة الجمل وصفين .

وقد بدءوا رواية هذه الأخبار شفويا حتى جاء القرن الثانى فبدأ التدوين ومن الطبيعى أن تشمل هـذه الكتب المدونة عـدداً من الأساطير التى كانت متداولة عن الحوادث أو الأبطال أو المدن خصوصاً ما كان منها سابقاً لعصورهم

أو للاسلام . فهم قد يكتبون عن طوفان نوح فيروون روايات لا يقبلها العقل أحياناً ، وهم قد يتحدثون عن مأرب أو عن بلقيس ملكة سبأ ، أو عن فرعون ، أو عن كسرى ، أو عن ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، أو عن الاسكندر وبناء مدينته العظيمة «الاسكندرية» ؛ وهكذا فيضيفون الى التاريخ قصصاً ، ويخلعون على الملوك بطولات ، ويبنون تلك المدن العظيمة لبنة من فضة وأخرى من ذهب ، ويجعلون قصر بلقيس الممرد أعجوبة الدنيا ، وهكذا تختلط الأساطير بالتاريخ الحقيقى .

التـــاريخ والأدب

مما يجعل قراءة تلك الكتب ممتعة غرابة الخيال وخصبه ، واتساع نواحى القصص وتنوعها ، ولكنهم ألتزموا الدقة فيما يتصل بأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتحروا الصحة فيماكتبوا عنه ، واتبعوا طريقة المحدثين فى العناية بالسند وارجاع الأخبار الى مصادرها الأولى على نحو ما يفعله المحدثون فى كتب الحديث . وكانوا يؤثرون نقل الأخبار كما وردت اليهم بعبـــاراتها ؛ ومن أشهر المؤرخين المسلمين الأوائل محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣٠٢ هـ .

واتصاله الوثيق بالأدب يرجع الى كثرة ما روى فيه من الأساطير والقصص عن بدء الخلق ، وتاريخ آدم عليه السلام ، وأخبار بنى اسرائيل ، وملوك بابل ؛ والفرس واتصالهم باليونان والرومان . ويعد الكتاب مرجعاً أدبياً عظيما لكثرة ما روى فيه من خطب ورسائل تتصل بالعصر الاسلامى والأموى وأوائل العصر العباسى ، وما ورد فيه من أشعار تتعلق بالوقائع والحروب والأبطال ، كما يعد تعبيره عن المعانى وتصويره للأحـــداث نموذجاً أدبياً راقياً من نمـــاذج التعبير والتصوير فى العصور الاسلامية المختلفة .

وكثير من كتب التاريخ الاسلامى تهتم بالأساطير القديمة والأخبار الغريبة التى رويت عن الأمم السابقة أو الأنهـــار العظيمة ، أو المدن الكبيرة ، واقرأ

مروج الذهب للمسعودى تجد فيه من العجائب حكايات لطيفة سائغة تقرؤها وأنت لا تصدق ما تقرأ فيها من تلك الأساطير ، ولكنك لا تستطيع أن تسكت عن القراءة حتى ينتهى الفصل أو الباب ، فهى تأسرك بأسلوبها ، وتجذبك بغرابة أخبارها ، ولكن فيهم من كان يؤثر الدقة ، ويميل الى النقد والتمحيص ويعمل عقله فيما ينقل أو يروى مثل ابن خلدون .. بل ان هذا المؤرخ العظيم فلسف التاريخ حتى قيل انه وضع أصول علم التاريخ ، ولم يجعله مجرد سرد حوادث تعتمد على الرواية ، بل هو فى نظره مبنى على أصول ، يعتمد على طبائع الأشياء وعلم الاجتماع والنفس ، ووضع مقاييس للأحداث يمتحن بها صحيحها من زائفها ، وقد كتب لتاريخه مقدمة مشهورة ملأها بآرائه ونظرياته القيمة فجاءت وحيدة فريدة فى تاريخ التأليف الاسلامى ، حتى قيل عنه — بسبب هذه المقدمة — انه سابق الى وضع أساس « علم الاجتماع » .

وقد تحدث فى المقدمة عن العلوم وأصنافها ، وكتب فصولا عن علوم اللسان العربى مثل علم النحو ، واللغة والبيان وعلم الأدب ، وبين أن اللغة ملكة صناعية ، وكتب فصلا فى تفسير الذوق فى مصطلح أهل البيان ، وأن هذا البيان لا يحصل غالبا للمستعربين من العجم ، وبين أن أهل الأمصار على الاطلاق قاصرون فى تحصيل هذه الملكة اللسانية ، ومن كان فيهم أبعد عن اللسان العربى كان حصولها له أصعب وأعسر ، وكتب عن انقسام الكلام الى فنى النظم والنثر . وأنه لا تتفق الاجادة فى فنى المنظوم والمنثور معا الا للأقل ، وكتب فصلا فى صناعة الشعر ووجه تعلمه ، وفى أن صناعة النظم والنثر انما هى فى الألفاظ لا فى المعانى ، وأن حصول الملكة يكون بكثرة اللفظ وجودتها بجودة المحفوظ ، وختم المقدمة بفصل قيم فى الموشحات والأزجال بالأندلس .

وهذه الفصول المتعلقة باللغة والأدب والملكة كتابة علمية جاء فيها بنظريات حاول التدليل عليها والاحتجاج لها .

المقريزى :

من أهم المؤرخين المسلمين الذين جاءوا بعد ابن خلدون ، وله الفضل الكبير فى تسجيل تاريخ مصر الاسلامية فى مختلف عصورها ، وألف فى تاريخ الفاطميين والأيوبيين والمماليك . وأهميته الكبرى تظهر فى كتابه « المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار » وهو المعروف بخطط المقريزى ، وقد دون فيه مصر وأحوالها وسكانها وآثارها وشوارعها ، وجوامعها ، وأسوارها وبلدانها ، وغير ذلك ، واذا ذكر أثراً من الآثار أفاض فى تاريخه وما توالى عليه من الأحداث ، وما يتصل به من شئون اجتماعية ، واقتصادية وجغرافية .

وقد تحرر فى كتابته من الأسلوب العلمى الدقيق ، فتراه استعمل تعبيرات عامية ، أو آثر الألفاظ المستعملة فى عصره والمصطلحات التى جرى عليها أهل زمانه .

بين التاريخ والأدب

لا شك فى أن الثقافة التاريخية لازمة للأديب يستمد منها فيما يكتب ، ويستعين بها فى تفكيره ، ويقتبس منها الموعظة والعبرة ، ولولا تلك الثقافة التاريخية الواسعة عند شوقى فى الناحية العربية الاسلامية ، والناحية المصرية ما استطاع أن ينشىء قصائده الخالدة فى توت عنخ آمون ، ولا قصيدته الهمزية

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

ولولا الدراسة التاريخية الطويلة لتاريخ سيدنا عمر بن الخطاب ما استطاع حافظ أن يبدع العمرية ، ولا الشيخ عبد المطلب قصيدته العلوية ، ولولا ثقافة العقاد وقراءته ما استطاع أن يبدع العبقريات ، ولا استطاع هيكل أن يثبت « حياة محمد » ،ولا الفاروق عمر ، ولا الصديق أبو بكر ، ولا طه حسين أن يكتب الفتنة الكبرى فى تاريخ سيدنا عثمان ، ولا جورجى زيدان أن يكتب

رواياته التاريخية المشهورة ، ولا استطاع شكسبير أن يكتب رواياته التاريخية من أمثال هنرى الثامن ولا هنرى الرابع والخامس ، ولا استطاع كارليل أن يكتب كتابه « الأبطال » ، ومن هذه الثقافة التاريخية استقى شوقى مسرحياته التاريخية مثل كليوباترا ، وعلى بك الكبير وقمبيز .

غير أن الأديب غير مقيد بحوادث التاريخ الدقيقة ، فقد يخترع شخصيات فى مسرحياته أو رواياته لغاية يراها ، كما اخترع شكسبير شخصية سيرچن فولستاف المرحة فى مسرحية هنرى الرابع ، وكما ابتدع جورجى زيدان كثيرا من الشخصيات أضافها الى رواياته التاريخية ، وقد رأى شوقى كثيراً ممن كتبوا عن كليوباترا لم ينصفوها • ورأى وهو مصرى أن هذه الملكة مصرية ، وأن الأدب قد ظلمها وافترى عليها ، فكتب مسرحيته لينصفها ، وجعلها مخلصة لعرش مصر وأرض مصر أكثر من اسرافها فى شهواتها وجعلها تقول فى احدى القطع :

أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال

وجعلها تنتحر لأنها تأبى حياة الذل فتقول فى نفس القطعة :

حياة الذل تدفع بالمنايا تعالى حية الوادى تعالى

ولم يعترض النقاد على هذه الزيادة فى الشخصيات غير التاريخية لأنها تكون لازمة لبيان وجهة نظر ، أو لدفاع عن فكرة .

وخلاصة هذا أن التاريخ مادة خصبة للأديب يستقى منها عناصر أدبه ، ولا بأس به اذا زاد من عنده ما يراه لازماً لا تساق مسرحيته أو روايته .

وكتب التاريخ مصدر من مصادر الأدب فقد حوت هذه الكتب أشعارا وخطبا ورسائل لم تحفل بها دواوين أصحابها ، ولم يسطرها مؤرخو الأدب ، وان كتاباً مثل تاريخ الطبرى يحوى من ذلك ما تضيق به كتب الأدب ، وقد رجعت الى جمهرة خطب العرب لأستاذنا أحمد صفوت ، وكتاب جمهرة الرسائل له فوجدته اعتمد فى جمع هذه المجموعة على كتب التاريخ من أمثال الطبرى ، ومروج الذهب للمسعودى ، والكامل لابن الأثير .

وقل ان تجد مؤرخا للأدب لم يرجع الى كتب التاريخ ليرى السبب فى اتجاه الأدب تلك الوجهة أو هذه.فهم حين يتكلمون عن أدب العصر العباسى لا ينسون سلطان الفرس فى هذا العصر ، وتأثر الأدب بهذا السلطان فى عهد العباسيين .

وحين يكتبون عن الأدب الأموى ويلاحظون اتجاهه الى المدح والهجاء لا ينسون أثر الخلفاء فى ذلك . فهم كانوا يحبون المدح لأنه دعاية سياسية لهم ، وهو يخلد ذكرهم ويترك لهم أحاديث فى الغابرين ، وهو يرضى هواهم ، ويعجب أذواقهم .

وكثرة الخطابة فى صدر الاسلام وخمول الشعر أو تأخره عنها فى هذا العصر يعلله التاريخ بشدة الحاجة الى هذه الخطابة فى نشر الدين ، واثارة الحمية فى نفوس الجنود ، وكثرة المواقف الأخرى التى تدعو اليها فى ميادين القتال ، وفى معاهدات الصلح ، وفى التبشير بالفتوح ، وفى القيام بين يدى الخلفاء فى الوفادات الخ ..

ولا نريد أن ننسى الفرق بين كتب التاريخ فيما تعرضه من نصوص وبين كتب الأدب . فليست غاية كتاب التاريخ أن يعرض قصيدة كاملة لأنه ليس ديوانا للشعر ، وانما يعرض من نصوص الأدب ما يوافق غايته ، فقد يأتى بأبيات من وسط القصيدة ، وقد يأتى بأبيات غير متتابعة ، ولها فضل فى بيان الوقت الذى قيل فيه النص على وجه التقريب أو التحديد ، وفى توضيح معناه ، وبيان اشاراته والافصاح عن الشخصيات والأماكن والحوادث التى وردت فيها .

ولكن كتب التاريخ تحفظ ما يعنيها ، وكتب الأدب تروى ما يعجبها ويرضيها ، وقد يضيع بين هذين قدر كبير من الأدب لم يجد من يهتم بروايته أو تدوينه من المؤرخين أو الرواة .

وقد تجد من كتب التاريخ ما اهتم برواية أدب لولاه ما عاش ، فكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى حفظ لنا كثيراً من الأشعار التاريخية التى قيلت فى عصر العباسيين فى مصر ، سواء أكان قائلوها من المصريين أو من الشعراء الوافدين ،

وذكر تلك الأشعار فى المناسبات التاريخيـة التى قيلت فيها ، كما عرفنا بأسماء شعراء لولاه لم نسمع بهم .

واهتم بشعر القضاة وما قيل فيهم ، ولولاه ما اهتم رواة الأدب به ، فاننا قد لا نجد فى كتاب آخر غير الكندى ما نجـده فيه من شـعر هؤلاء القضاة والظروف التى قيل فيها . وقد جمعت ذلك أو كثيرا منه فى كتابى « تاريخ الأدب العربى فى مصر » تحت عنوانين الأول : الشعر التاريخى ، والثانى : الشـعر القضائى ، وبينت المراد بهذين العنوانين ، وقد رأيت شاعراً مصرياً مثل سعيد ابن كثير بن عفير لم يهتم به أحد كاهتمام الكندى .

وبعض المؤرخين كانوا أدباء يؤرخون العبارات الأدبية العالية أو المزخرفة فى الكتابة ، فهذا هيرودوت من أوائل مؤرخى اليونان يعد كتابه « أقدم كتاب منثور رائع عرفه الأدب اليونانى » وكتاب كاتو هو « أقدم ما عرف الرومان من النثر الأدبى البارع أيضا » .

وكان المحدثون والقصاص والمؤرخون عند العرب ينشئون نثراً فنياً رائعاً فى الأدب العربى حين كانوا يتحدثون الى الناس فى المساجد والمجامع والأندية يفعلون ذلك فى لغـة عذبة سائغة ، فيها رصـانة الأسلوب ، وجزالة اللفظ ، ويعتمدون على العقل والخيال فى تصوير الحوادث العظام ، والوقائع الهائلة ، وكانت جماهيرهم التى تستمع اليهم تشغف بهذا الأسلوب من الحديث يسجلونه وينقلونه الى من لم يستمع اليه ، وقد يضيفون مكملين أو مصححين لما قد يكون فيه من نقص أو خطأ . فضلا عن كتب التاريخ التى صيغت بالصيغة الأدبية فى القديم والحديث .

ولعل التاريخ هو أول فن من فنون النثر الأدبى المكتوب عـرفه العرب . « ولو أن باحثا أراد أن يستخلص وصفا دقيقا للنثر الأدبى التـاريخى عند العرب فى القرن الأول لما وجد فى ذلك مشقة ، وما عليه الا أن يرجع الى كبار كتب التاريخ ليرى فيها اختلاف الأساليب ومذاهب القول من عبارات رصينة ،

متينة اللفظ رائعة شائقة . وخذ مثالا لذلك تاريخ الطبرى والمسعودى والكامل وخذ كتب المحدثين ممن كتبوا فى التاريخ مثل الأستاذ فريد أبى حديد والأستاذ العقاد وخذ كتاب موكب الشمس للدكتور أحمد بدوى مدير جامعة عين شمس الذى يؤثر أسلوب ابن زيدون فى اقتباس العبارات والجمل من الأدب العربى الجزل ، ويقع على عبارات من القرآن أو الشعر من محفوظاته فيدخلها فى ثنايا كتابته فتستقر فى موضعها استقراراً ، ولا يضيق بها مكانها الذى اختارها له المؤلف . بل ان كتب التاريخ التى كانت تدرس فى المدارس الثانوية مثل كتب الأستاذ عمر الاسكندرى وسليم حسن ، وكتب رفعت وحسونة ، وكتب شفيق غربال تمتاز بأسلوب أدبى يجمع بين الدقة وقوة التصوير وسهولة العبارة .

ومن الكتب التاريخية القديمة التى تعد قطعاً أدبية أو نثراً فنياً تاريخ العتبى الذى وضعه أبو النصر العتبى فى تاريخ محمود بن سبكتكين ، وكتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » الذى ألفه العماد الأصفهانى ، ووصف فيه فتح صلاح الدين لبيت المقدس بعبارة مسجوعة مع اغراق فى استعمال الجناس والتشبيه ، ونحو ذلك مما يتلاءم مع كتابة ذلك العصر وروحه .

أثر الأدب فى التاريخ

اذا كان التاريخ عاملا من العوامل المؤثرة فى الأدب ، وكان كتاب التاريخ أدباء يمتازون بنثرهم الفنى ، فان الأدب قد أثر فى التاريخ وغير مجراه فى أحوال متعددة ، وأن كثيرا من الأدباء قد أدركوا ما لهم من المقدرة على تحويل تيار التاريخ وتغيير اتجاهه ، وأول ما نعرف من ذلك فى الأدب العربى القرآن الكريم والرسول العظيم ، فقد كان للقرآن من الأثر فى تحويل العرب من جاهليتهم ، وكان له من الأثر فى نفوسهم ما قالوا عنه انه سحر وانه من وحى الشياطين « وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون » ، وقالوا عنه انه شعر

وكهانة لشدة فعله فى نفوسهم ، « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين » .

وقالوا عن الرسول انه شاعر وكاهن وساحر حين يحدثهم بالقرآن فيفتنهم ويحدثهم بالحديث فيأسر ألبابهم : « بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » . « وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون » وقالوا « ان هذا الا سحر مفترى » . ولقد شهد له شهادة صادقة أحد أساطين قريش هو عتبة ابن ربيعة : روى أن أبا جهل قال فى ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره . فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى على ، فأتاه ، وكلمه وعرض عليه المال والرياسة والنساء ليكف .. فقرأ الرسول عليه من أول سورة فصلت الى قوله تعالى : « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم أن يكف . وكذلك كان وقع القرآن فى نفوسهم . وتأثيره على عواطفهم . حتى غير دينهم وبدل حياتهم ، وأصلح آراءهم ومجتمعهم وتحداهم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله فعجزوا ، وانتهى أمرهم الى الهزيمة « ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

وتوفى الرسول الكريم ، ولحق بالرفيق الأعلى ، واجتمع المهاجرون والأنصار بعد وفاته فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة ، واختلفوا فيمن يتولى أمرهم بعد الرسول ، فقال أبو بكر خطبة هائلة ، وحدت المسلمين فاجتمعت كلمتهم ، وبايعوه ، فأخذ بيدهم الى النجاة ووحد صفوفهم ، ورمى بهم العرب فثابوا الى رشدهم ورجعوا عن ردتهم وأدوا الزكاة .

واختلف معاوية مع على ، وتحاربا ، والتقت جيوشهما بصفين عددا من المرات ، وفى ليلة مشهورة تسمى ليلة الهدير ، كاد معاوية يفر من الميدان مهزوما ولو فعل لما قامت دولة بنى أمية ولا سمع بها التاريخ ، ولكن أبياتا من الشعر

مرت بخاطره ورواها فثبت فى المعركة ، وانتهى الأمر بتغلبه على جيوش على ، وآلت اليه الخلافة بسبب ذلك : يقول مبينا أثر الشعر على دولته :

اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر دأبكم ، فلقد رأيتنى ليلة الهدير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل ، بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملنى على الثبات الا أبيات عمرو بن الاطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
واقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

فتغير وجه التاريخ بهذه الأبيات ، وكانت سبباً فى قيام دولة بنى أمية فى الشرق من سنة ٤٠ — سنة ١٣٢ هـ .

وكان للشعر أثر فى نظام الوراثة فى عهد بنى أمية ، أو للأدب بوجه عام ، فان معاوية لما أراد أن يبايع لابنه يزيد بالخلافة من بعده حشد الخطباء فى الأمصار ، وأوعز الى الولاة أن يستعينوا بالأدب على ذلك ، وأوعز معاوية الى مسكين الدارمى أن يقول أبياتاً فى البيعة ليزيد ووجوه بنى أمية عنده تؤيد هذه البيعة ويكون فيها معنى الالزام للحاضرين . فلما اجتمع عنده من أعيان بنى أمية ، عبد الله بن عامر ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص وأشراف الناس ، قام مسكين فأنشد قصيدة منها :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء مهلاً فانما ... يبوئها الرحمن حيث يريد
اذا المنبر الغربى خلاه ربه ... فان أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الغربى والجد صاعد ... لكل أناس طائر وجدود
فلا زلت أعلى الناس كعبا ولا تزل ... وفود تساميها اليك وفود

ولا زلت بيت الملك فوقك عاليا تشـــيد أطنـــاب له وعمـــود
قدور ابن حرب كالجوابى وتحتها أثاف كأمثـــال الرئال وقـــود

فقال معاوية تنظر فيما قلت يا مسكين ونستـــخير الله ، فلم يتكلم أحد من الحاضرين الا بالاقرار والموافقة ووصله معاوية ، ووصله يزيد .

وعرف خلفاء بنى أمية من بعده أثر الشعر فى مثل هذا الموقف ، فان مروان ابن الحكم كان قد عهد بالخلافة من بعده لابنه عبد الملك ثم لابنه عبد العزيز من بعده . ولكن عبد الملك أراد أن يجعل ولاية العهـــد من بعده لابنـــه الوليد ، فأوحى الى نابغة بنى شيبان أن يدعو الى ذلك ويؤيد الدعوة ، فقال شعراً منه :

لابنك أولى بمـــــــلك والده ونجم من قد عصـــاك مُطَّرح
داود عـــدل" فاحـــكم بســـنته ثم ابن حـــرب فانهم نصـــحوا

ولكن عبد العزيز مات قبل عبد الملك فسقطت المعارضة فى البيعة للوليد ، وأصبح ولياً لعهد المسلمين وخليفة من بعد أبيه ، وفعل الوليد فعل أبيه فأراد أن يخلع أخاه سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد ويجعلها فى ابنه عبد العزيز فاستعان بالشعراء ، وقال جرير :

اذا قيل أى الناس خـــير خليفة أشارت الى عبد العزيز الأصابع
رأوه أحق النـــاس كلهـــو بهـــا وما ظلمـــوا ان بايعوه وبارعوا

واذا أخفق الشعر فى تغيير ولاية العهـــد فى هاتين المرتين فليس ذلك لعيب فيه ، وانما حدثت ظروف أخرى عاقته عن الوصول الى غايته .

ومن ثقة الأدب بنفســه ، وقدرته على تسكين الفتن أن الحجاج بن يوسف ، وهو وال على العراق خطب خطبته الأولى المشـــهورة فأخضع النـــاس لرأيه ، وخرجوا مسرعين الى محاربة الخوارج مع المهلب بن أبى صفرة ، وبلغه أن قوماً من الأعراب خرجوا يفسدون الطريق . فكتب اليهم رسالة يقول فيها مهدداً :

« والله انى لأهم أن يكون أول ما يرد عليكم من قبلى خيل تنسف الطارف والتالد ، وتدع النساء أيامى والأبناء يتامى ، والديار خراباً ، والسواد بياضاً »

فلما جاءهم كتابه كفوا عن قطع الطريق .

وفى آخر عهد بنى أمية كان عبد الحميد بن يحيى رئيس الكتاب وامامهم ، وخرجت المسودة من خراسان تريد المشرق بقيادة أبى مسلم الخراسانى ، فأراد عبد الحميد أن يستعين بالأدب ليغير وجه التاريخ فكتب الى أبى مسلم كتاباً يستجلبه به ، وقال لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، « لقد كتبت اليه كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فان يك ذاك ، والا فالهلاك » ، وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على جمل ، فلما وصل الكتاب الى أبى مسلم أمر باحراقه وكتب على قصاصة منه الى مروان :

محا السيف أسطار البلاغة واتنحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

فأفسد تدبيره ، واستمر فى طريقه حتى أزال ملك بنى أمية .

والذين درسوا تاريخ النهضة الحديثة فى أوربا المعروفة بالرنيصانص Renaissance أو الاحياء يعرفون أن من أهم عوامل هذه النهضة التى أخرجت أوربا من الظلمات الى النور ، وانتقلت بها من ظلام القرون الوسطى كان احياء الآداب والمعارف اليونانية والرومانية .

ولعلك لا تجد ثورة فى القديم والحديث الا وجدت وراءها نوعا من أنواعا الأدب يهيىء الأذهان والنفوس لها ويحمل الجماعات حملا عليها . فالثورة الفرنسية قد سبقتها كتابات فولتير وروسو . وثورتنا المصرية على الانجليز سنة ١٩١٩ ، كان يوقد نارها خطباء مصاقع ، وثورة الجيش الظافر المنصور كانت وراءها منشورات الضباط الأحرار ومقالات فى الصحف وروايات تهيىء لها الأذهان ، وكان النصر فى بور سعيد بعد خطبة الرئيس ناصر ، التى أعلن فيها أننا نحارب من يحاربنا ، ونسالم من يسالمنا ونعادى من يعادينا . فكانت خطبه فى تلك الفترة دعماً لايماننا وتقوية لقلوبنا ، وتثبيتاً ليقيننا ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم .

نشأة البحث البلاغي

للدكتور عبد الحميد سند الجندي

المدرس بقسم اللغة العربية

(١)

الدور التاريخي العلمي

في صدر الدولة العباسية برز في المجتمع الاسلامي تغيرات جوهرية باعدت بينه وبين ماضيه بسبب الاختلاط الذي نجم عن اتساع الامبراطورية الاسلامية، وقد سقط النفوذ العربي السياسي وتحطمت عصبية العرب ، وظهرت فكرة الشعوبية ، وخفت صوت القائلين بأفضلية العرب . وكان لذلك كله نتيجة حتمية لازمة هي أن تصبح اللغة العربية صناعة ، وأن تُكتسب بالتعلم ، وأن يكون درسها ودرس أدبها ذا قواعد وضوابط يُحتاج فيها الى التأليف والكتابة.

والى جانب ذلك كانت البيئة الثقافية الاسلامية تزخر بامتزاج علمي آخر اختلطت فيه ثمار العقول العربية بنتاج العقول الأجنبية . فقد التمس القوم آثار المدنيات المختلفة من يونانية ولاتينية وفارسية وهندية ، ونقلوا فنونا متنوعة من ذلك الى لغتهم ، وأقبلوا على دراستها وتمحيصها وتمثلها ... فكان لهذا كله أثره في الانشاء الأدبي وفي صناعة النقد .

وقد تسرب أثر هذه الحركة الفكرية سريعا الى الناحية الاعتقادية ، وساعد على ذلك تلاقي ديانات مختلفة ومذاهب متباينة ، فاشتعلت نار الجدل في أواخر القرن الثاني الهجري وتطاير شررها الى جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية . وكان أول ما أثير حوله هذا النقاش الحاد هو القرآن الكريم معجزة الاسلام الكبرى .

وقد حمى وطيس الجدل بين أئمة الأدب وأرباب المقالات من علماء الكلام فى بيان وجه اعجاز القرآن ، واختلفوا فى ذلك طرائق قددا وتضاربت آراؤهم كما هو مسطور فى آثارهم مثل « المواقف » لعضد الدين و « المقاصد » لسعد الدين التفتازانى .

وكان الرأى الآفن السقيم بين هذه الآراء رأى ابراهيم النَظّام أحد زعماء المعتزلة وصاحب المذهب الخبيث الذى ينسب اليه ، وهو « مذهب الصَّرفة » . وفحوى هذا المذهب أن القرآن ليس معجزا بفصاحته وبلاغته وأن العرب كانوا قادرين على أن يأتوا بمثله ، ولكن الله صرفهم عن ذلك تصديقاً لرسوله حتى يؤدى رسالات ربه .

وقد انبرى للرد عليه جم غفير من جلة العلماء من بينهم الجاحظ والباقلانى وامام الحرمين والفخر الرازى وغيرهم ، وناضلوا نضالهم المحمود الذى خلد لهم فى بطون الأسفار ، فكتبوا الفصول المستعة مبينين خطل هذا الرأى فى منطق قوى سليم لم يُبق زيادة لمستزيد .

كذلك قامت سوق نافقة للحجاج والمناظرة فى ذلك العصر بين أئمة اللغة والنحو من أنصار الشعر الجاهلى الذين كانوا يرون الخير كل الخير فى الحفاظ على أساليب العرب وأوضاعها الفنية ، وبين الأدباء والشعراء أنصار الشعر المحدث الذين لم يكونوا يحفلون بما درج عليه أسلافهم من العرب ، ورأوا أنهم فى حِلٍّ من كل قديم لا يشاكل الحضارة التى غُذوا بلبانها ورُبوا فى أحضانها . ولو أن القدر أتاح لهم أن يروا زخارف تلك المدنية ، وأن يستبدلوا الحواضر بالبوادى ، والقصور بالخيام ، والرياض الفاتنة بمنابت الشيح والقيصوم ، والأنهار الجارية بمساقط الغيث الذى يزور لِماماً ، وترف الحياة ولينها بشظفها ولأوائها — لو أن القدر أتاح لهم ذلك كله لكان لهم شأن فى أدبهم ومَهْيع فى أساليبهم غير هذا .

يضاف الى ذلك اللجب ما شجر من الخلاف بين أئمة الأدب وأساطينه فى بيان وجوه تحسين الكلام حتى يتوقل فى مدراج البلاغة . وقد تناقضت آراؤهم فى ذلك أيما تناقض ؛ ففريق مال الى رصين الكلام الجامع بين العذوبة والجزالة وسطوة العبارة ، وفريق أولع بالمنمق الموشى بألوان من البديع . ومظهر ذلك ما نراه فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ حين حكم على تلك الأبيات المشهورة لكثير عزة بأنها مونقة خلابة فى لفظها ، فاذا أنت فتشتها لم تظفر منها بطائل ، وهى :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح [1]

ثم ما نراه فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، من استحسان لهذه الأبيات واتهام لذوق ابن قتيبة[2] ، ووافقه على نقده هذا أبو الفتح بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ فى كتاب « الخصائص » [3] ، والامام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ فى « أسرار البلاغة » [4] الذى حللها تحليلا دقيقا يدل على ذوق فنى رفيع مبينا مواطن الجمال فيها لفظا ومعنى .. الى غير ذلك من مختلف الآراء مما لا يتسع المقام لسرده الآن .

وكل ذلك لفت أنظار أئمة البلاغة الى أن يضعوا قوانين وضوابط يهرعون اليها عند الاختلاف ، وتكون دستورا للناظرين فى آداب العرب منثورها ومنظومها ، ونشأ من ذلك البحث فى علوم البيان أو علوم البلاغة .

---

(١) انظر مقدمة كتاب « الشعر والشعراء » .
(٢) انظر كتاب « الصناعتين » ص ٤٢ طبعة الاستانة .
(٣) انظر كتاب « الخصائص » ج ١ ص ٢٢٥ طبعة الهلال .
(٤) انظر « اسرار البلاغة » ص ١٦ طبعة دار المنار .

(٢)

وليس هناك من ريب فى أن عناصر أجنبية شتى كانت ذات أثر بالغ فى نشأة البحث البلاغى المنظم • ومن تلك العناصر ما هو يونانى ، وما هو فارسى ، وما هو سريانى ، وما هو هندى ، وما هو غير ذلك • وليس من الهين اليسير أن نحدد أثر كل عنصر على حدة تحديدا استقصائيا مضبوطا ونرده الى أصله ، فهذا أمر لا مطمع لأحد فيه ولا ينهض به جيل بأكمله • ولكننا برغم ذلك نستبيح لأنفسنا أن نقول ان العنصر اليونانى كان أوفر هذه العناصر الأجنبية حظا من عناية العرب • فقد أقبل القوم فى نهم شديد على ترجمة منطق أرسطو وفلسفته ، وكانوا — لشدة اكبارهم له — يسمونه « المعلم الأول » • وكان من أبلغ كتبه أثرا فى الثقافة العربية — وبخاصة البلاغة — كتابا الخطابة والشعر ، وقد ترجم الأول حوالى منتصف القرن الثانى أو فى أواخره على أكثر تقدير [١] ، وترجم الثانى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى [٢] ، وللكتابين تلخيص فى كتاب « الشفاء » لابن سينا لعله أكمل صورة لهما فى العربية • وقد تبين من الرجوع الى أصل كتاب الخطابة فى غير العربية — فضلا عن تلخيصه العربى — أن فيه أبحاثا بلاغية مختلفة تسمح لنا بالقول بأن هذا الكتاب كان ذا أثر غير قليل فى نشأة البحث البلاغى وتطوره .

وحديثنا عن تلك الفلسفة اليونانية وأثرها فى البلاغة العربية يمهد للاشارة الى ما كان للفلسفة الاسلامية الخاصة (أعنى أبحاث العقائد) من أثر فعال فى نشأة البحث البلاغى ، اذ كانت حاجتهم شديدة الى الكلام فى اعجاز القرآن ووجهه •

---

(١) انظر « فهرست ابن النديم » ص ٢٤٤ طبعة أوربا .
(٢) انظر « فهرست ابن النديم » ص ٢٦١ طبعة اوربا .

وعلى ذلك نرجح أن البحث البلاغى نشأ فى البيئات الكلامية ، ويصرح بذلك ابن تيمية فى رسالته (الايمان) حين يقول عند كلامه عن اصطلاح المجاز : « والغالب أنه كان من ناحية المتكلمين »[١] .

وقد كان لتلك النشأة السابقة وما بيناه من عوامل فيها الأثر الواضح فى اتساع البحث البلاغى وتطوره وظهور اتجاهات مختلفة فى الدراسة البلاغية ؛ فكانت هناك طريقة المتكلمين ، والى جانبها طريقة أخرى هى طريقة الأدباء . ونحن لا نحتاج فى اثبات وجود هاتين الطريقتين الى أكثر مما صرح به أبو هلال العسكرى فى آخر الفصل الأول من الباب الأول من كتاب الصناعتين اذ يقول : وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وانما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، فلهذا لم أطل الكلام فى هذا الفصل »[٢].

(٣)

أصبح البحث البلاغى يتناوشه اذن مدرستان : مدرسة كلامية ، ومدرسة أدبية . فالمدرسة الكلامية تمتاز بالتحديد اللفظى والعناية بالتعريف الصحيح والقاعدة المنضبطة والروح الجدلية ، مع الاقلال من الشواهد ، وعدم العناية باظهار الجمال الفنى فى التراكيب ، وتعتمد على المقاييس الفلسفية والأدلة المنطقية فى الحكم على الكلام بحسنه أو قبحه .

أما المدرسة الأدبية فتمتاز بالاكثار من الشواهد نثرا أو شعرا ، والاقلال من القول فى التعاريف والقواعد والتقاسيم ، والاعتماد فى الحكم الأدبى على الذوق الفنى وعلى حاسة الجمال أكثر من الاعتماد على تصحيح الأقسام وسلامة التدليل المنطقى .

---

(١) انظر رسالة (الايمان)لابن تيمية ص ٣٤ طبعة المطبعة السلفية .
(٢) كتاب « الصناعتين » ص ٨ طبعة الآستانة .

وقد تسايرت المدرستان على اختلاف فى التقارب والتباعد الى أن غلبت أخيرا الروح الكلامية فى البحث البلاغى ؛ وكان لها اليد الطولى فى تحديد دائرته تحديدا ضيقا هو الذى انتهى الينا .

ولعلنا نستطيع أن نقول ان البحث البلاغى قد سار على وفق البحث المنطقى؛ اذ نراهم يعتبرون الجملة فى اصطلاح النحاة نظير القضية فى اصطلاح المناطقة[1] . ونرى أن بحثهم فى المفردات وخصائصها — وهو ما يسمى بعلم المعانى — لا يكاد يزيد عن البحث المنطقى فى المفردات ، وهو أبحاث التصور . وأبحاثهم فى علم البيان — وهى تتناول المركبات ودلالتها — تقابل التصديقات فى المنطق . ويجىء بعد ذلك علم البديع وهو تحسين ثانوى فى البحثين السابقين .

وعلى ذلك يمكننا أن نقول ان الدرس البلاغى قد بدأ ناقصا وانتهى ناقصا . فقد حرمنا أبحاثا بلاغية قيمة نجدها فى بلاغات الأمم الأخرى ، وهى ضرورية للنقد الفنى ، كما هى ضرورية لصناع القول من كتاب وشعراء ... فمن تلك الأبحاث البحث فى الأسلوب واختلافه وأوجه تفاوته ومزايا أنواعه . ومنها البحث الأوسع فيما وراء الاستعارة والكناية من الغرض العام للأديب فى القصيدة أو القطعة النثرية ، وكيف يرسم صورة قولية فنية متصلة الأجزاء متناسبتها ، وكيف يبرز كل جزء من أجزائها . ومنها البحث فى ايجاد المعانى وفى ترتيبها وفيما يناسب كل فن أدبى منها وما لا يناسبه . وكذلك البحث فى فنون القول الأدبى نثرا وشعرا ودرسها فنا فنا لبيان ما به يحسن كل فن وما يجانسه من تشبيهات واستعارات وكنايات .. وغير ذلك من الأبحاث التى نجدها لدى الأمم الأخرى والتى ألمع اليها الجاحظ وابن قتيبة والسجستانى وغيرهم .

(١) انظر « الاقصى القريب فى علم البيان للقاضى التنوخى » ص ٦ .

والحق أننا نجد عند المدرسة الأدبية فى مختلف عصورها اشارات الى بعض تلك الأبحاث ؛ كالذى ساقه قدامة بن جعفر فى « نقد الشعر » من الكلام على نعت الرثاء والمديح والهجاء والوصف والتشبيه ، وكالذى عرض لبعضه ابن الأثير فى « المثل السائر » من بحث فى الرسائل ومقدماتها والخطب وما يتصل بها ، وغير ذلك .

مهما يكن من شىء فلا ريب فى أن البلاغة العربية كانت وثيقة الصلة بالبيئة الفلسفية ، ونعنى بالفلسفة معناها العام أو معناها الخاص ؛ كالفلسفة الاسلامية الكلامية التى تغلب عليها الصلة بالأبحاث الالهية . فنرى البلاغة فى جميع أدوارها قد عاشت فى كنف رجال الفلسفة ؛ فسهل بن هارون حكيم يتعاطى الفلسفة ، والجاحظ كان على رأس فرقة كلامية وقد قرأ كتب الفلاسفة عند الأمم المختلفة ، وقدامة بن جعفر فيلسوف منطقى ، وعبد القاهر الجرجانى متكلم ، والزمخشرى من أشهر رجال المعتزلة ، والسكاكى من المبرزين فى علم الكلام .. وكذلك المتأخرون من طبقة المؤلفين ، كالعضد الايجى (نسبة الى ايج فى فارس) ، والقزوينى والسعد التفتازانى ، والشريف الجرجانى ، والبسطامى ، ليس منهم الا وقد أخذ يحفظ من الفلسفة وعلم الكلام .

(٤)

الدور الفنى

واذا كانت جملة ما ترتد اليه البلاغة أنها نقد ما يصنع من فنون القول أو انشاء تلك الفنون — فلا مراء فى أن ذلك موجود ما وجد قائل وناقد قول . وتلك نحيزة قديمة كانت الصحراء العربية زاخرة بها أيام الجاهلية وبعد أن أشرق نور الاسلام .

ففى أيام الجاهلية كان للقول المتخير من نثر وشعر سوق نافقة تدل على أنهم كانوا فى نهضة أدبية حية . فقد كانوا ينقدون ما يسمعون من شعر ويتخيرون بعضه فيسرى فى الآفاق ، كما نعرف من أخبار الأسواق . وكان

لهؤلاء البُداة فى أيام السلم مجامع وسوامر يتسلون فيها بانشاء القريض وانشاده .. ولا نكاد نتجاوز الحقيقة اذا قلنا ان حكامهم فى المفاخرة والمنافرة كانوا فى جملة الأمر نقادا ، ينصرون فريقا على فريق لبلاغة قول وشدة أسر شعر . وليس ذلك كله الا ضربا من الدرس البلاغى . وكانوا يسوقون الأحكام فى البادية على الطبيعة المشهودة ، محتكمين الى الذوق الفطرى دون منهج ولا أسلوب مرسوم .

ثم أقبل الاسلام فكانت الدعوة الاسلامية درسا بلاغيا قويا ، اذ اعتمدت فى الاقناع والدعاية على أسلوب بسطت به بين يدى القوم أصول الدعوة ومراميها ، فلما أبوا واستكبروا تحدتهم أن يأتوا بمثل كتاب الله الكريم فعجزوا « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . وكان اعتناق العربى للاسلام — على ما يظهر لنا — حكما نقديا أدبيا ، لأنه انما يكون بعد أن يجد فى نفسه صدى قويا لهذا الأسلوب القرآنى الذى تعنو له جباه أساطين البلاغة واللسن المقاويل ، كما حدث فى اسلام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

ثم كانت الحياة الجديدة مجالا واسعا لنقد أدبى أنشط مما كان فى الجاهلية ، فقد زاد فى عوامل التفاخر عامل لا يفاخر قبيلا ولا ينافر شخصا ، وانما يفاخر الجزيرة كلها وينافر الدنيا جميعا ، فالتقى شعراء المشركين ومن ظاهروهم بشعراء النبى صلى الله عليه وسلم . وكان الحكم لهؤلاء أو أولئك بالتفوق حكما أدبيا من وحى الذوق . ونرى صاحب الشريعة عليه السلام يؤيد تلك الناحية الفنية فى النقد الأدبى تأييد تاما حينما يسأل : فيم الجمال ؟ فيقول : فى اللسان ، يريد البيان[1].

وخلف الرسول عليه السلام خلفاء كانوا خطباء مصاقع ونقادا يحسنون الحكم على الشعر.وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه كان أنقد أهل زمانه للشعر

(١) العمدة لابن رشيق ١٦١/١ طبعة مطبعة السعادة .

وأبصرهم به ، وحكمه لزهير بن أبى سلمى معروف . وقد ذكروا أنه كتب الى أبى موسى الأشعرى يقول : مر من قبلك بتعلم الشعر فانه يدل على معانى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب »[1] . وأثر عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أحكام على الشعراء المتقدمين مقرونة بعلل التفضيل وأوجه التقدير .

وهكذا كان عصر الرسول والخلفاء من بعده فيه نوع من الدراسة البلاغية المعتمدة على الذوق الفنى والحس الفطرى . ثم كانت الدولة الاسلامية الواسعة التى رفرف عليها لواء المدنية والحضارة ، فحجبت مظاهر الرفاهة مجال الحس الفطرى ، وباعدت بينه وبين معانيه رويدا رويدا . الا أنهم أرادوا أن يحتفظوا بالتربية القومية والروح العربية ، جاعلين نصب أعينهم قولة عمر السابقة الى عامله أبى موسى الأشعرى ، وهى تدل على أنهم كانوا يعدون الشعر والأنساب والأيام علم العرب ، وكانوا يتداولون دراستها على مثال ما كانت تصنع مدرسة البادية معتمدة على الذوق الفطرى .

وما زالوا كذلك حتى وجدوا أن حَصَر العجمة قد بدأ يزحف الى ألسنة أبنائهم بسبب اختلاطهم بأبناء البلاد المفتوحة ، فأخذوا يستدعون المؤدبين ليحفظوا على الأبناء روح العربية وأدبها ... وهنا نرى فى هؤلاء المؤدبين أول اتجاه مغاير يصيب الدراسة البلاغية الفنية . فقد أخذ أولئك المؤدبون يعملون على تكوين البصيرة النافذة والقدرة على القول البليغ ، ويقاومون فى ذلك عوامل اضعاف الروح العربية معتمدين على ضروب من التلقين والتعليم . وكانوا ينتقدون معانى ما يروونه لتلامذتهم من الشعر نقدا يعتمدون فى جملته كذلك على قواعد الجمال الفطرى واستيحاء الطبيعة . وكانوا يخوضون من غير شك فى معنى الفصاحة والبلاغة ، ويحاولون ايضاح هذه المعانى بأمثلة وشواهد من المروى نثرا ونظما . فكان ذلك تغييرا ما فى منهج الدراسة ، الا

---

(١) المستطرف للأبشيهى ص ٢١٦ طبعة بولاق .

أنه كان تغييراً طفيفاً لا يخرج المدرسة البلاغية عن نزعتها الفنية ،وبخاصة اذا رأينا أن أولئك المؤدبين كانوا من أهل البادية الذين لم تلوث ألسنتهم حصائد العجمة ، أو أشخاصا عمدة علمهم الرواية عن البدو .

وفى هذا الدور نرى دواعى المدنية قد دفعت القوم الى التدوين شيئاً فشيئاً ، فظهرت رسائل تحت عناوين بلاغية مثل « كتاب المعانى » لمؤرج السدوسى ، ثم كتاب آخر اسمه « كتاب الفصاحة » لأبى حاتم السجستانى ، ثم « كتاب البلاغة » للمبرد .

وهنا نجد أننا قد شارفنا دورا جديدا فى حياة البلاغة ، هو الدور العلمى الذى تميز باتجاهه الجديد فى ضبط موازين النقد ووضع قواعد البلاغة والدنو رويدا رويدا من النزعة العلمية التى لم نكن نراها واضحة فى الدور السابق الذى نعته بالدور الفنى . وقد تحدثنا فى أول الأمر عن هذا الدور العلمى .

(٥)

أشهر رجال البلاغة

والآن نسوق الحديث الموجز عن نفر من رجال البلاغة الباحثين ذوى الآراء الانشائية التى اتسع بها البحث وامتدت أطرافه ، ثم عن الرجال الذين قاموا بنصيبهم فى التدوين والشرح وتهيئة المادة للدراسة ... نسوق ذلك على نظام ما بيناه من أدوار حياة البلاغة ومدارسها (دور تاريخى علمى ودور فنى — مدرسة أدبية ومدرسة كلامية) .

والحق أننا نجد فى أواخر الدور الفنى — وهو الذى سبق الدور التاريخى — رجالا لهم متفرقات فى البلاغة ليست بالكتب المستقلة ، ولكنها على كل حال أبحاث مبتدئة كانت فيما بعد نواة للتأليف المحدد والبحث المستفيض ... فمن هؤلاء :

١ ــ عبد الله بن المقفع ، وهو كاتب أديب متفلسف ، وله كتب الأدب الكبير ، والأدب الصغير ، وكليلة ودمنة المترجم عن الفارسية ، ويرى بعض المستشرقين أنه من وضعه [١] . توفى ابن المقفع سنة ١٤٢ هـ .

٢ ــ جعفر بن يحيى البرمكى ، الوزير الأديب ، صاحب التوقيعات ، الذى ينقل له الجاحظ المتفرقات فى بيانه عن الفصاحة والبلاغة ، توفى سنة ١٨٧ هـ

٣ ــ بشر بن المعتمر صاحب الصحيفة المعروفة فى البلاغة وحدودها ، توفى سنة ٢١٠ هـ [٢] .

٤ ــ سهل بن هارون الكاتب المتفلسف الملقب (بزرجمهر الاسلام) ، وكان يتولى الهيمنة على خزانة الحكمة للمأمون . توفى سنة ٢٠٦ هـ .

٥ ــ أبو عثمان الجاحظ صاحب الكتب المشهورة ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

٦ ــ ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ صاحب طبقات الشعراء وعيون الأخبار وأدب الكاتب وتأويل مشكل القرآن .

٧ ــ المبرد المتوفى سنة ٢٨٨ هـ صاحب كتاب الكامل وكتاب المقتضب .

هؤلاء هم الأدباء والكتاب الذين وضعوا اللبنات الأولى فى صرح التأليف البلاغى .

ومنذ أوائل القرن الرابع نجد البحث يتخذ شكلا متميزا ، فنستطيع أن نذكر الرجال حسب نظام المدارس الذى أشرنا اليه . وأحب أن أشير الى أننا فى هذا التفريق بين رجال المدرستين ، والحكم لواحد بأنه من رجال المدرسة الأدبية أو الكلامية انما نعتمد فى ذلك على الأكثر الأظهر من حال هؤلاء الرجال ، لأن نزعاتهم فى ذلك الدرس لا تتميز تماما ، بل قد يختلط الأمر فى الكتاب الواحد للرجل الواحد ، أو تظهر له العناية بالناحيتين فى كتابين مختلفين يكون فى أحدهما أجنح الى الناحية الكلامية وفى الآخر أدنى الى الناحية الأدبية .

---

(١) انظر « ابن المقفع » فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) اقرأ هذه الصحيفة فى البيان والتبيين ١/١٠٤ طبعة المطبعة التجارية .

رجال المدرسة الأدبيـة

يذكر الرواة أن أبا عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٦ هـ هو أول من ألف فى البيان كتابا سماه « مجاز القرآن » وتوجـد منه قطعة مخطوطة فى دار الكتب تحت اسم « تفسير غريب القرآن » لأبى عبيـدة . وبالنظر فيها يتبين أن أبا عبيدة توخى فى هذا الكتاب أن يجمع الألفاظ التى أريد بها غير معناها الوضعى . ألا تراه وقد سـئل مرة عن قول الله عز وعلا « طلعها كأنه رءوس الشياطين » فقـال : هو مجاز كقول امرىء القيس « ومسـنونة زرق كأنياب أغوال » . ولذا يعتبر هذا الكتاب ـ فى نظرنا ـ كتاب لغة ، ويعتبره بعضهم كتاب تفسير[1] . وعلى ذلك رأينا أن نسقطه من حسابنا .

أما هؤلاء الذين بدءوا يشيدون صرح البلاغة العربية من غير أن ينزعوا بها بعيدا عن الذوق الأدبى والحس الفنى فهم :

١ - عبد الله بن المعتز الخليفة الشاعر المتوفى سنة ٢٩٦ صاحب « كتاب البديع » .

٢ ـ قدامة بن جعفر المنطقى الرياضى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ والذى يقول فيه ابن النديم « أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ؛ وممن يشار اليهم فى علم المنطق »[2] صاحب « نقد الشعر » و « نقد النثر » .

٣ ـ أبو أحمد العسكرى اللغوى المحدث أستاذ أبى هلال العسكرى ، وقد توفى سنة ٣٨٢ هـ وله رسالة صغيرة اسمها « التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم » .

٤ ـ أبو هلال العسكرى ؛ الحسن بن عبـد الله بن سـهل المتـوفى سنة ٣٩٥ هـ صاحب كتاب « الصناعتين » المعروف .

(١) يعتبره الدكتور طه حسين كتاب لغة (ذكرى ابى العلاء ص ١١٦) .
(٢) يعتبره الدكتور طه حسين كتاب لغة (ذكرى أبى العلاء ص ١١٦) .

٥ — القاضي الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب المتكلم الأديب المتوفى سنة ٤٠٣ هـ صاحب كتاب « اعجاز القرآن » .

٦ — ابن رشيق القيرواني ، أبو على الحسن الناقد الأديب الكاتب المتوفى سنة ٤٦٣ هـ صاحب كتاب « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » .

٧ — ابن سنان الخفاجي ، أبو بكر محمد عبد الله بن محمد بن سعيد ابن سنان الخفاجي الحلبى الشاعر الأديب المتوفى سنة ٤٦٦ هـ مؤلف كتاب « سر الفصاحة » .

٨ — أبو بكر عبد القاهر الجرجاني النحوى البليغ المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، ويعتبر أدق من كتب فى البلاغة من أهل عصره وأسخاهم قلما وأوسعهم بيانا فى كتابيه « دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة » .

٩ — ابن الأثير ، وهو الكاتب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الموصلى المتوفى سنة ٦٣٧ ، صاحب كتاب « المثل السائر » ، ولعله آخر من نعده من رجال هذه المدرسة ، لأننا لانكاد نجد للطريقة الأدبية فى الدرس أثرا يذكر ، لم تتم الغلبة للمدرسة الكلامية .

رجال المدرسة الكلامية

أشرنا آنفا الى عدم سهولة التمييز بين رجال المدرستين ، والى اختلاط النزعتين فى الأثر الواحد للمؤلف ، واننا لذلك نضطر الى اعتبار بعض رجال المدرسة الأدبية من ذوى الأثر فى المدرسة الكلامية . فنحن نجد قدامة بن جعفر ذا نزعة فلسفية منطقية ظاهرة ، وبخاصة فى كتاب « نقد النثر » اذا صحت نسبته اليه . الا أن الحياة الأدبية الناشئة فى عصره وعدم نضج الدراسة المنطقية اذ ذاك دفعاهم الى تركيز العناية بالناحية الأدبية ، وهذا ما جعلنا نعده من رجالها . وكذلك نرى عبد القاهر أميل الى النزعة الكلامية فى كتابه « دلائل الاعجاز » ، والى الأدبية فى « أسرار البلاغة » . الا أن أسلوبه

الأدبى المسهب ، واعتماده على الحاسة الفنية فى الحكم على النص ، وحديثه المستفيض عن الذوق الأدبى ... كل ذلك وغيره جعلنا نعده من رجال المدرسة الأدبية .

ورأس هذه المدرسة الكلامية وأستاذها البارز هو :

١ ــ السكاكى ، أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٢٦ هـ صاحب كتاب « مفتاح العلوم » . ويذكر ابن خلدون ــ حين يؤرخ للبيان ــ أن السكاكى هو واضع هذا الفن[1] . ولعله محق فى ذلك على اعتبار أنه يؤرخ البيان على الصورة التى كانت متدارسة فى عهده ، اذ كانت المدرسة الأدبية لذلك الحين قد أخلت الميدان تماما . ولنا فى هذا الكتاب حديث مسهب بعض الشىء ، حينما نتكلم عن كتب المدرسة الكلامية . ويقول ياقوت فى السكاكى : انه علامة امام فى العربية والبيان والأدب والعروض والشعر ، متكلم فقيه ، متفنن فى علوم شتى[2] » . وحوالى عصر السكاكى أو بعده بقليل نرى رجالا يمكن أن يكونوا قد أحدثوا شيئا من الأثر فى طريقة تلك المدرسة الكلامية. فنستطيع أن نعدهم مع السكاكى من رجال هذه المدرسة المتميزين بشىء من البروز فيها ، ومن هؤلاء :

٢ ــ الفخر الرازى ، وهو فخر الدين محمد بن عمر المتوفى سنة ٦٠٦ هـ صاحب التفسير المعروف ، وله كتاب « نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز » .

٣ ــ التنوخى : زين الدين أبو عبد الله عمر المتوفى سنة ٦٣٧ هـ وله كتاب « الأقصى القريب » .

٤ ــ يحيى بن حمزة العلوى اليمنى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ صاحب كتاب « الطراز » وهو أوفى كتاب وضع فى البلاغة حتى زمنه .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣١١
(٢) انظر « معجم الادباء ٢٠/٥٨ طبعة دار المامون .

هذا الى أننا نرى فى القرنين السادس والسابع رجالا يعنون بتتبع بعض الفنون البلاغية كالمجاز والبديع فى القرآن خاصة مثل :

٥ ــ عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٠٦ هـ فى كتابه « الايجاز فى بعض أنواع المجاز » .

٦ ــ ابن أبى الاصبع العدوانى المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ مؤلف كتاب « تحرير التحبير فى علم البديع » وكتاب « بديع القرآن » .

أما بعد ذلك ، أى منذ القرن الثامن فلا نرى الا مؤلفين عيالا على من سبقهم . يبسطون ويطوون فى أقوالهم دون زيادة فى الجوهر أو الأصل .

(٦)

اهم كتب البلاغة

والآن نحاول أن نشير ــ فى لمحة موجزة ــ الى أشهر كتب المدرستين . ونحن لا نطمع فى دراسة خاصة للكتاب نبين بها جهد صاحبه ، وتأثره بمن قبله ، وصلته بمن بعده . فذلك درس يحتاج الى زمن كاف وتجرد تام له ، وانما نسوق هنا لمحات خاطفة عن تلك الكتب الكبرى بعد أن نترك المتفرقات التى كانت قبل وضع الكتب . وقد يدفعنا المجال الى أن نبسط القول بعض الشىء فى كتب بالذات لأن المقام يتطلب ذلك .

كتب المدرسة الأدبية

١ ــ كتاب البديع لابن المعتز : ويعتبر دراسة فنية لعناصر الجمال فى الأدب . وقد جمع فيه مؤلفه محاسن الكلام التى ازدان بها كلام الفحول من الجاهليين والاسلاميين ، ووردت فى الكتاب الكريم ، وفى حديث الرسول الكريم ، وكلام الصحابة والتابعين . ولم يكن ابن المعتز يعنى « بالبديع » ما يعنى به البلاغيون المتأخرون الآن من أنه العلم الذى يبحث فى وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه

على مقتضى الحال ؛ ووضوح الدلالة على المعنى المراد ، وانما كان يعنى به سائر فنون البلاغة . ولهذا نراه يخوض فى فصول من « البيان » كالتشبيه ، والكناية ، والتعريض ، وفى فصول من « علم المعانى » كالالتفات ، والاعتراض ، فضلا عن بعض المحسنات البديعية كالتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ؛ والمذهب الكلامى ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح ، وتجاهل العارف ، والهزل الذى يراد به الجد ، وحسن التضمين ، ولزوم ما لا يلزم ؛ وحسن الابتداء .

والظاهر أن الذى دفعه الى تأليف هذا الكتاب تعصبه لعروبته وانكاره على المحدثين ادعاءهم بأن العناصر الجمالية من صنعهم ، فهو يريد أن يبين للناس أن بشارا وأبا نواس ومسلم بن الوليد وأبا تمام ومن سلك دربهم لم يسبقوا الى تلك الفنون ، ولكنهم أكثروا منها ، فعرفت فى زمانهم بكثرتها . وكانت تصدر عن السابقين عن طبع وسليقة ، لا عن تعمل واسراف ، كما فعل غلاة المحدثين .

٢ ــ نقد الشعر : لقدامة بن جعفر ، وفيه أبحاث متفرقة عن اللفظ والمعنى وفنون القول الأدبى من وصف وتشبيه وهجاء . وفيه بعض أبحاث من الفنون الثلاثة المعروفة ، بعضها باسمه الذى صار اليه أخيرا ، وبعضها باسم آخر كان له فى عصره ، كتسمية الكناية المعروفة لنا الآن بالارداف . والكتاب فيه من الأبحاث البلاغية الفنية ما نحن الآن فى حاجة الى استكماله ، كحديثه عن فنون القول وما به تحسن ، وأمثال ذلك .

٣ ــ نقد النثر : وفى نسبته الى قدامة شك ، وقيمته البلاغية دون كتاب « نقد الشعر » . وفيه أبحاث مقتضبة قليلة الجدوى فى وجوه البيان والعبارة والرمز والاستعارة والتقديم والتأخير والحذف ، وما شابه ذلك . وأبحاثه بعامة تسيطر عليها الروح المنطقية سيطرة أقوى مما فى نقد الشعر .

٤ ــ التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم : لأبى أحمد العسكرى ، وهو رسالة صغيرة اسمها أكبر مما تحتويه ، ففيه خواطر أدبية ولمحات بلاغية لا تقوم بتلك التسمية المهمة .

٥ ــ الصناعتين : لأبى هلال العسكرى ، وفيه أبحاث مسهبة عن البلاغة والفصاحة ، ومتفرقات فى العمل الأدبى وكيف يزاوله الأديب ويتخير له ، وتختلط فيه الفنون البلاغية بطريقة غير متميزة .

وهو يتناولها بنزعة أدبية فنية نقدية . ونراه يسلك سبيل الجاحظ فى الابانة عن موضوع (البلاغة) فى أصل اللغة ، وما يجرى معه من تصرف لفظها ، وذكر حدودها ، وشرح وجوهها ، وضرب الأمثلة الكثيرة فى كل نوع منها ، وتفسير ما جاء عن العلماء فيها . وهو معجب بكتاب « البيان والتبيين » ، ويصرح بأنه قرأه ، ويعترف بأن هذا الكتاب كثير الفوائد جم المنافع ، « الا أن الابانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ومنتشرة فى أثنائه . فهى ضالة بين الأمثلة ، لا توجد الا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير » . ولهذا رأى أبو هلال أن يصنف كتابه هذا « مشتملا على جميع ما يحتاج اليه فى صنعة الكلام نظمه ونثره ، ويستعمل فى محلوله ومعقوده من غير تقصير واخلال ، واسهاب واهذار »[1].

وليس من شك فى أن الغرض الأول من دراسة البلاغة والبيان ــ فى نظر أبى هلال ــ هو اثبات اعجاز القرآن « من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الايجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة »[2].

وهو ينقل كثيرا من كتاب «نقد الشعر» ويذكر اسم مؤلفه قدامة بن جعفر ، وفى مواضع من النقد الشعرى يكاد ينقل الصفحة الكاملة من كتاب « الموشح » للمرزبانى .

٦ ــ اعجاز القرآن : للقاضى الباقلانى ، وقد ألفه صاحبه ليرد الشبه التى يريد بها أعداء الدين الغض من شأن الآية الكبرى للنبوة وهى كتاب الله الكريم .

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٥ طبعة الآستانة .

(٢) كتاب الصناعتين ص ١ .

وقد عرض المؤلف لمسألة الاعجاز وشرحها وبيان وجوه الاختلاف فيها • وهو بذكر جملة من وجوه الاعجاز عند بعض العلماء ، كتضمنه الاخبار عن الغيوب التى لا يقدر على علمها البشر،وما كان معلوما من حال النبى صلى الله عليه وسلم وهو أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك ما كان معروفا من حاله أنه عليه السلام لم يكن يعرف شيئا من كتب الأولين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ••• ومن وجوه الاعجاز أن القرآن بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعجز الناس عن الاتيان بآية من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • كما تكلم الباقلانى عن الشعر ومزاياه حين تعرض لنفى أن يكون الكتاب الكريم شعرا •

٧ ــ العمدة : لابن رشيق القيروانى ، وهذا الكتاب ينتظم أبحاثا فى النقد والأدب ،ولكنه يعتمد على النقل والرواية أكثر مما يعتمد على قريحة المؤلف وآرائه الخاصة • وابن رشيق يعترف أنه « جمع أحسن ما قاله كل واحد منهم فى كتابه ليكون العمدة فى محاسن الشعر وآدابه » [1] ومع ذلك يقول « وعولت فى أكثره على قريحة نفسى ونتيجة خاطرى » • وقد تصدى فيه لأبحاث بلاغية ، مثل باب البلاغة وباب الايجاز وباب البيان وباب الاستعارة وباب التشبيه والكناية والرمز وغيرذلك.ولكنه يعتمد أكثر مايعتمد علىسرد أقوال السابقين . وتناول كذلك فنونا كثيرة من البديع ، واستحدث بعضها ، وقد أحسن فى ذلك أيما احسان • وصدق ابن خلدون حين قال : وانما اختص بأهل المغرب من أصنافه (أى علم البيان) «علم البديع» خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الآداب الشعرية ، وفرعوا له ألقابا وعددوا أبوابا ونوعوا أنواعا ... » ، قال : وممن ألف فى البديع من أهل افريقية ابن رشيق ،وكتاب العمدة له مشهور ، وجرى كثير من أهل افريقية والأندلس على منحاه »[2] • ويمتاز هذا الكتاب بالاكثار من

---

(١) كتاب العمدة ٢/١ طبع مطبعة السعادة .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨١ طبعة بيروت .

الاستشهاد والتمثيل ، والنزوع الى النقد الأدبى ، والعناية بالشعر دونَ النثر • والمؤلف يشير كثيرا الى نقد قدامة وينقل عنه •

٨ ــ سر الفصاحة : لابن سنان الخفاجى : وهــذا الكتــاب من خير الكتب وأنفســـها • وهو نوع من البحث المسهب المنظم الدقيق فى العربية وأصولها ، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبى ، وسوق آراء سديدة فى النقد وفنون الأدب والبلاغة تنم عن عقل عميق ومحصول ضخم فى العلوم العربية • وقد قدم لنا أبحاثا قيمة فى الفصاحة وحقيقتها ، وفى الصورة وجزئياتها ومكوناتها وكلياتها ، مع الالمام بكلام الفلاسفة والعلماء لعهده • وبحث فى الحرف المفــرد ومخارجه وتناسبها وتبــاعدها ، ثم فى الكلمة المركبة وحسن جرســها ، واختيار الكاتب لكلماته وما يلاحظ فى ذلك من شروط ، مع ايراد الأمثلة الكثــيرة من ذلــك لوجوه الشعراء ، ومن طريف أبحاثه التعرض لبيان كلمات تجرى فى الهجاء وتقبح فى غيره ، وأخـــرى تستحسن فى المدح وهكذا . كما تنــاول الجملة وتركيبها من الكلمات •

وقد يكون هذا الكتاب ــ فيما يبدو لنا ــ أصلا لمــا تولاه بالبيان العالم الأديب المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « اعجاز القرآن » ، وفيما كتبه من أبحاث حول الفلسفة الصوتية فى القرآن •

٩ ــ دلائل الاعجاز : لعبد القاهر الجرجانى ، وهو الكتاب الذى غلبت فيه النزعة الكلامية ، وكان موضوع العناية فيه تلك المسألة الكلامية الكبرى التى شغلت أذهان المسلمين ردحا طويلا من الزمان ، وهى مسألة اعجاز القرآن • وقد بسط عبد القاهر رأيه فيها وهو أن الاعجاز مرجعه النظم • وهذه الفكرة نرى أصلها فى كتب سابقيه من المتكلمين ، ولكن عبد القــاهر تناولها بالشرح المسهب ، وأخذ يعيد فيها ، ولا يتركها الا ليعود اليها حتى استأثرت بالكتاب كله • وفى أثناء ذلك خاض فى أبحاث بلاغية ، كالتقديم والتأخير والتنكير والتعريف

والفصل والوصل والايجاز والذكر والحذف ، وكالمجاز والتمثيل والاستعارة والكناية ، وكالسجع والتجنيس ، وغير ذلك من الأبواب البلاغية الكثيرة .

١٠ — أسرار البلاغة : للمؤلف نفسه ، وهذا الكتاب تغلب فيه نزعة عبد القاهر الفنية ، ولايكاد يعرض لمسألة الاعجاز ، بل يقل فيه استشهاده بالقرآن الكريم الى حد يستحق التعليل . وقد عنى بفنون الحسن فى القول ، وبم تكون . وفى هذا السبيل يتناول أبحاثا بديعية وبيانية غير مرتبة ولا مبوبة ، فتكلم فى التجنيس والسجع والاستعارة والمجاز والحقيقة والتشبيه وما شابه ذلك من الأبحاث .

وعبد القاهر فى هذا الكتاب يتجرد للدفاع عن المعنى دفاعا حارا ، ويرى أن مقاييس الحكم على النص الأدبى ترجع كلها الى المعنى . وهو بذلك يرد الرأى الذى نادى به الجاحظ وهو أن المعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى ، « وانما الشأن فى اقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفى صحة الطبع وجودة السبك . فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير »[1].

ولهذا نرى عبد القاهر يفسر كل حسن لفظى تفسيرا معنويا .

وكتب عبد القاهر المبسوطة المتميزة العبارة — وبخاصة أسرار البلاغة — كانت — مع نزعتها الأدبية — دعامة كبرى للمدرسة الكلامية فيما تصدت له من تبويب وتحديد وتقسيم ، كما صرح رجالها أنفسهم بذلك كالسكاكى فى المفتاح والسعد التفتازانى فى شرحه المطول للتلخيص

١١ — المثل السائر : لابن الأثير . وقد جعل فيه مؤلفه الصناعة الأدبية الانشائية أساس البحث . وهو كاتب أديب ، وكان من كتاب الديوان الذى كان يرأسه القاضى الفاضل زمن صلاح الدين . وأحكامه النقدية مدعومة بتجاربه وملاحظاته . وهو بذلك قد أحيا روح الدراسة الأدبية وأنعش مدرستها فى ذاك

(١) انظر كتاب الحيوان للجاحظ ٢/٤٠ .

العصر المتأخر انعاشا يجعل كتابه هذا من المراجع الصالحة لمن يريد احياء رسوم تلك المدرسة . وقد تناول أكثر الفنون البلاغية على أساس جديد نوعا ما فى التقسيم ، اذ أفرد الصناعة اللفظية فى جانب ، والمعنوية فى جانب آخر . وقد بنى كتابه على مقدمة ومقالتين ، فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروع هذا العلم ، فالأولى فى الصناعة اللفظية ، والثانية فى الصناعة المعنوية .

وأول ما يبد هنا فى هذا الكتاب أننا نرى المؤلف معتدا بنفسه مزهوا بعلمه ، ولهذا نجده ينتقص غيره من الباحثين فى البلاغة ، ويعتقد أن كتابه هذا « بديع فى اغرابه وليس له صاحب فى الكتب »[1].

وقد أثارت شخصية ابن الأثير وشدة عجبه بنفسه ضجة كبيرة حول كتابه هذا ، فتناوله بالنقد معاصروه ، مثل ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ هـ صاحب « شرح نهج البلاغة » ، فقد ألف كتابا سماه « الفلك الدائر على المثل السائر » تتبع فيه سقطات ابن الأثير . ووضع أحد أدباء القرن الثامن كتابا سماه « نصرة الثائر على المثل السائر » ، وهو الشاعر الأديب صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ؛ وقد تناول فيه المؤاخذات التى تركها ابن أبى الحديد .

١٢ — الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور : لابن الأثير نفسه ، وهو على منوال المثل السائر،بل ان فيه أبحاثا توجد بنصها فيه مما يستحق الملاحظة، وان كان قد زاد فيه فصولا كثيرة ، مثل عنايته باللفظة المفردة التى كانت موضع دراسة ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة ؛ وفيه أبحاث أخرى طريفة .

وهذا الكتاب مع صنوه المثل السائر يعتبران صورة طيبة من النقد المعتمد على ممارسة صاحبه وملاحظاته الشخصية . وبهما ينتهى حديثنا فى كتب المدرسة الأدبية ، حيث تربعت المدرسة الكلامية على عرش البحث البلاغى كما ذكرنا بظهور كتاب « مفتاح العلوم » .

---

(١) انظر المثل السائر ص ٢ .

كتب المدرسة الكلامية

مفتاح العلوم للسكاكي : وهو أهم كتب هذه المدرسة وأخلقها بالدرس والتناول ، بل اننا نجاوز الحق اذا قلنا ان هذا الكتاب صار عند الأجيال الخالفة محور الدراسة البلاغية ومرجعها . ولهذا سنقصر حديثنا عليه من كتب تلك المدرسة ، لأنه أصبح قطب الرحى الذى دار حوله التأليف البلاغى بعده .

وقد عالج السكاكى البيان فى هذا الكتاب بعقلية أصح ما توصف به أنها ليست بيانيه . فقد أصبحت البلاغة قواعد جافة تحفظ وقلما يقاس عليها ، وفقدت قدرتها على تذوق البلاغة وتكوين البلغاء والنقاد .

وحسبنا دليلا على ذلك أن السكاكى درس البيان فى هذا الكتاب بالروح التى درس بها فيه علم النحو ، وعلم الصرف ، وعلم العروض والقوافى ، وعلم الاستدلال (وهو المنطق) . وهذا ما لم يفعله أحد من الذين سبقوه الى الكتابة فى علم البيان ؛ لا لأنهم كانوا يجهلون تلك العلوم التى أحصاها السكاكى ، فربما كان فيهم من هو أعلم بها منه . ولكنهم نظروا الى فن (البيان) فأنفوه علما جماليا يبتعد مجاله عن مجال تلك العلوم التى يبحث بعضها فى صحة اللفظ ، وبعضها فى صحة التركيب ، وبعضها فى صحة الوزن والقافية ، وبعضها فى صحة التفكير . بخلاف البيان الذى يبحث فى شىء وراء هذه الصحة هو دراسة الأسباب والعوامل المؤدية الى المتعة الفنية واحداث التأثير فى نفس قارىء الأدب وسامعه .

وقد قسم السكاكى كتابه الى ثلاثة أقسام : الأول فى الصرف ، والثانى فى النحو ، والثالث فى البلاغة . وهذا القسم الأخير جعله علمين ، هما علم المعانى وعلم البيان ، وجعل علم البديع تابعاً لهما . وقد أضاف الى كل قسم من هذه الأقسام مايكمله ؛ فتمم علم الصرف بعلم الاشتقاق ، واعتبر علمى المعانى والبيان مكملين لعلم النحو ، وأكمل المعانى — فيما رأى — بالكلام فى الاستدلال .

وتحدث عما يتم به الغرض من علم المعانى وعلم البيان ، وهو الكلام فى الشعر ، وبذلك اضطر الى البحث فى العروض والقوافى[1].

والحق أن السكاكى قد أفسد البلاغة العربية بهذا التعقيد الذى مجده به ابن خلدون . فقد حول البيان — وهو فن الذوق المطبوع — الى أبحاث وثيقة الاتصال بالمنطق ، وبذلك أدخل أساليب البحث المنطقى فى دراسة الأساليب البيانية الأدبية . وهو يصرح فى غير موضع بحاجة علم البيان الى علم الاستدلال (المنطق) . وهذا أمر يدعو الى العجب ؛ لأن العربى فى جزيرته كان يصوغ المعانى الرائعة ويرسل البيان الرفيع الذى كان موضع اعجاب خالفيه من غير أن يلم بعلم الاستدلال الذى يجعله السكاكى أساساً من أسس البيان ، ومن غير أن يعرف بلاغة السكاكى أيضا . فلما أفضى الأمر الى معرفتهما والوقوف عليهما غاضت تلك الينابيع الفياضة الحرة .

وقد صار كتاب المفتاح مرجع البلاغيين الأكبر فى دور الجمود والتوقف الذى امتد الى قريب من عصرنا .

ولسنا نعرف السحر العجيب الذى فتن العلماء بكتاب السكاكى ، فجعلهم ينسون أنفسهم وينكرون ملكاتهم ليسيروا فى ركاب السكاكى ، ويعتبروا كتابه الغاية التى يبتغونها . فقد اقتصروا على شرحه وتلخيصه فى متن ، ثم شرح التلخيص عدة شروح ؛ ثم وضعت حواش مختلفة على الشروح . ولعل أشهر هؤلاء العلماء بدر الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ، وقد اختصر المفتاح فى كتاب سماه « المصباح فى اختصار المفتاح » ؛ والخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ الذى اختصره فى كتاب سماه « تلخيص المفتاح » طبقت شهرته الخافقين ، وعنى بشرحه الجم الغفير من العلماء . وصنع قطب الدين الشيرازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ كتاباً سماه « مفتاح المفتاح » ؛ وشرحه ابن مظفر شمس الدين الخطيبى المتوفى سنة ٧٤٥هـ فى كتاب سماه «شرح المفتاح» . واختصره عضد الدين

---

(١) انظر « مفتاح العلوم » ص ٣ طبعة المطبعة الأدبية .

الايجى الشيرازى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ فى كتاب اسمه « الفوائد الغياثية فى علوم المعانى والبيان والبديع » .. وغيرهم .. وغيرهم من العلماء الذين عنوا بتلخيص المفتاح وشرحه .

بيد أن أحد هذه الشروح والتلخيصات حظى بعناية علماء البلاغة ، وهو « تلخيص المفتاح » للخطيب القزوينى ؛ فقد شرحه المصنف فى كتاب سماه « ايضاح التلخيص » ، وأضاف اليه زيادات أخرى من كتابى عبد القاهر «دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » . ووضع فخر الدين الرازى شرحاً لأبيات الايضاح .

ومن أشهر شراح التلخيص مظفر الخطيبى وله « مفتاح تلخيص المفتاح » . وبهاء الدين السبكى (٧٧٣ هـ) وله « عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح » وناظر الجيش (٧٧٨ هـ) وسمى شرحه « شرح تلخيص القزوينى » ؛ وسعد الدين التفتازانى (٧٩٢ هـ) وله شرحان : الشرح الكبير والشرح الصغير للتلخيص ... وغيرهم كثيرون .

وندع الآن الذكر التفصيلى لهذه الشروح لنشير الى ظاهرة جديرة بالذكر ؛ هى نظم المتون البلاغية التى بدأت فى القرن التاسع على الأرجح . ولعل أقدم ما نظم فى البلاغة منظومة ابن الشحنة المتوفى سنة ٨١٥ هـ فى علوم البلاغة الثلاثة ولعلها أقدم المنظومات البلاغية . ومن أشهر المنظومات « عقود الجمان فى علم المعانى والبيان » للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ؛ وكذلك « الجوهر المكنون فى الثلاثة الفنون » للأخضرى من رجال القرن العاشر ، وعليه شرح للدمنهورى المتوفى سنة ١٠٩٢ ؛ وحاشية للشيخ مخلوف المنياوى من علماء القرن الثالث عشر . وهناك منظومة الهذلى . وملحة البيان لزين المرصفى المتوفى سنة ١٣٠١ وغير ذلك من المنظومات .

وهناك ظاهرة أخرى بلاغية أدبية هى نظم القصائد المعروفة « بالبديعيات » فى مدح الرسول عليه السلام ، كل بيت منها يشتمل على لون من البديع ؛ مثل بديعية ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ وشرحها معروف باسم خزانة الأدب ؛ وبديعية السيوطى ، وبديعية الايبارى ، وبديعية صفى الدين الحلى ، وبديعية النابلسى وغيرها .

من مدارسنا النقدية

للدكتور ماهر حسن فهمى
المدرس بقسم اللغة العربية

عند ما ننظر لما خلفه لنا العرب من نقد ، نستطيع فى سهولة أن نقسمه الى ثلاثة أقسام . أما القسم الاول فهو بداية النقد فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام ، وأما القسم الثانى فهو الدراسات النقدية التى ألفها العرب منذ القرن الثالث الهجرى حتى القرن السابع ، وأخيراً القسم الثالث ويشمل الشروح والتفريعات البلاغية المتأخرة .

والدارس للنقد الجاهلى ، لايرى فى الواقع الا أحكاما جزئية فى بيت من الشعر ، تتعلق بلفظة أو بمعلومات حسية ، ولا تتعلق بالقيم الشعرية . فطرفة ابن العبد ينقد المتلمس لأنه وصف الجمل بصفة خاصة بالناقة ، وهناك من ينتقد المهلهل بن ربيعة لأنه ادعى فى بيت من الشعر أنه يسمع صليل السيوف من مسافة لا يمكن أن يسمع منها ذلك الصليل ، وعد هذا عيباً شعرياً . كذلك نجد زوجة امرىء القيس تفضل شعر علقمة على شعر زوجها ، لأن امرأ القيس زجر فرسه وضربه بسوطه ، ففرس علقمة اذن أسرع . ثم نجد أحكاما عامة لا تستسيغها الدقة العلمية فى النقد ، كقول الأحوذى :

« مامن أحد ، الا لو أشاء أن أجد فى شعره مطعناً لوجدته ، الا الحطيئة[1] »

أو قولهم : امرؤ القيس أشعر الناس اذا ركب ، وزهير اذا رغب ، والنابغة اذا رهب ، والأعشى اذا طرب . وقد نجد نوعا من التعليل ، ولكنه تعليل ساذج لا يمت الى بنية القصيدة بصلة ؛ كنقد النابغة لحسان فى بيته الذى يقول فيه :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

(١) الأغانى القسم السادس ص ١٤٠

فقال النابغة : قلت الجفنات ، وهى جمع قلة ولو قلت الجفان لكان أفضل . وقلت يلمعن ، واللمعان يختفى ويظهر ، ولو قلت يشرقن لكان أفضل ، وقلت بالضحى ، وكل شيء فى الضحى يلمع ، ولو قلت بالدجى لكان أفضل ، وقلت يقطرن ، ولو قلت يجرين لكان أفضل . على أن هناك من يشك حتى فى صحة هذه الرواية[1].

وتعليل عمر بن الخطاب لحكمه الذى قال فيه أن زهيرا أشعر الشعراء لانه « لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشية ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه » [2] ، هذا التعليل لا يتعدى الألفاظ ، والصدق الأخلاقى ، الذى قد يختلف عن صدق الاحساس أو الصدق الفنى .

ولكن النقد العربى لم يقف عند حدود هذه المرحلة ، فقد حاول بعد ذلك أن يضع قواعد للنقد ، وأصولا تساير التطور الثقافى الذى طرأ على الحياة العربية . وأول كتاب وصلنا يتعلق بموضوعنا هذا هو طبقات الشعراء لابن سلام + ٢٣٢ هـ ، ثم تلاه الشعر والشعراء لابن قتيبة + ٢٧٦ هـ .

وفى القرن الرابع نجد نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، وقد تأثر فيه بالمنطق اليونانى ، ثم نرى كتابين يحاولان التطبيق العملى هما الوساطة بين المتنبى وخصومه لأبى الحسن الجرجانى + ٣٦٦ هـ ، والموازنة بين الطائيين الآمدى + ٣٧٠ هـ ، وفى أواخر ذلك القرن نجد كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى + ٣٩٥ هـ . ويأتى القرن الخامس والدراسات النقدية مزدهرة ، فنجد اعجاز القرآن للباقلانى + ٤٠٣ هـ ، ثم العمدة لابن رشيق + ٤٥٦ هـ ، ثم يأتى عبد القاهر الجرجانى + ٤٧١ هـ ، وقد أشاع الوعى النقدى بكتابيه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة . وفى القرن السادس نجد الزمخشرى + ٥٣٨ هـ ، وهو

---

(١) النقد الادبى لسيد قطب (حاشية ص ١٢٦) .
(٢) طبقات الشعراء ص ٢٩

عالم بلاغة أصلا ، ثم طبق علمه على اعجاز القرآن ، وأخيراً نجد فى القرن التابع ابن الأثير + ٦٣٧ هـ ، وكتابه المثل السائر .

هذه الكتب تمثل مراحل الازدهار للنقد والبلاغة فى العصور العربية ، وتمثل الأصالة فى التأليف ، اذ نجد لكل كاتب فكرة . ثم تلت ذلك عصور ضعف جمدت فيها البلاغة وأصبحت عبارة عن تفريعات شكلية منذ جاء السكاكى ، وكتابه مفتاح العلوم ، وظهرت بعد ذلك تلخيصاته وشروحه الكثيرة . ونحن اليوم ندرس البلاغة كتاريخ للنقد وحسب ، فلم يعد لها أثر كبير فى تربية الذوق الفنى ، لفهم الأدب وتحليل نصوصه .

وأول ما يطالعنا فى هذه الكتب التفاتهم الى قضية اللفظ والمعنى ، فابن قتيبة يقول فى مقدمته ان الشعر أربعة أنواع ، أو أربعة أضرب ، ضرب حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب حسن لفظه وعلا ، فاذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا ، وضرب جاد معناه وقصرت الألفاظ عنه ، وضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه . وهى لا شك خطوة أولية فى دراسة الشعر . وننظر الى أحكامهم النقدية فنراها ترجع الى ذلك حين يقول صاحب الوساطة : « وقد علمت أن الشعراء قد تداولوا ذكر عيون الجآذر ونواظر الغزلان حتى انك لا تكاد تجد قصيدة ذات نسيب تخلو منه الا فى النادر الفذ ، ومتى جمعت ذلك ، ثم قرنت اليه قول امرىء القيس :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل

أو قابلته بقول عدى بن الرقاع :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

رأيت اسراع القلب الى هذين البيتين وتبينت قربهما منه ، والمعنى واحد ، وكلاهما خال من الصنعة بعيد عن البديع،الا ما حسن به من الاستعارة اللطيفة التى أكسبته هذه البهجة . هذا وقد تخلل كل واحد منهما من حشو الكلام

ما لو حذف لاستغنى عنـه ، وما لا فائدة فى ذكره ، لأن امرأ القيس قال : من وحش وجرة ، وعديا قال : من جآذر جاسم ، ولم يذكرا هذين الموضعين الا اسـتعانة بهما فى اتمام النظم ، واقامة الوزن ... وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها الا كغيرها من الظباء ، وسألت من لا أحصى من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلا » .

ويزيد قدامة بن جعفر فيضع مقاييس لفنون الشعر ، فالمديح ينبغى أن يبنى على أصول أربعـة هى العقل والشجاعة والعدل والعفة ، وأما الهجاء فيكون بسلب المهجو الصفات المذكورة فى المديح . وأما الرثاء فليس بينه وبين المديح فرق ، الا أن يذكر ما يدل على أنه لهالك مثل كان وتولى وما أشـبه ذلك . وأما النسيب فان مقياس الجودة فيه ، التهالك فى الصبابة وافراط الوجد واللوعة ويكون فيه من التصـابى والرقة أكثر مما يكون فيه من الاباء والعزة . وعلى ذلك الفهم نجد تطبيقه لهذه الأسس على الشعر ، فمما يعيبه فى الغزل قول الشاعر :

فلمـا بدا لى ما راعنى نزعت نزوع الأبى الـكريم

ثم يعلق عليه ناقلا رأى المخزومى حين يقول : قبحه الله ، لا والله ما أحبها ساعة قط[1].

ولكى تكتمل صورتنا عن النقد العربى لابد لنا من الوقوف عند أحد هذه الكتب ومحاولة دراسة منهجه النقدى وهو كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى. يستعرض أبو هلال فى الباب الثانى من كتابه تميز الكلام جيـده من رديئـه ، ثم يفصل الحديث عن المعـانى ، فيقول : « الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته ، وتخير لفظه واصابة معناه ، وجودة مطالعه ولين مقاطعه واسـتواء تقاسيمه وتعادل أطرافه وموافقة مآخيره لمبـاديه ، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلا ، حتى لا يكون لها فى الألفاظ أثر ... والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن

(١) قدامة بن جعفر والنقد الادبى لبدوى طبانة ص ٣١٤ — ٣٤٩

الغليظ ... وليس الشأن فى ايراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه[1]» .

ونلاحظ فى هـذا النص عدة أمور ، نلاحظ أولا فى قوله ان النفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ ، أنه يحاول أن يجعل سر الجمـال فى الأثر الفنى ، هو التأثير فى النفس . وهذه الناحية التى عالجها أبو هلال فى بساطة وايجاز ؛ نجد بعد ذلك عبد القـاهر فى القرن الخامس يفيض فيهـا ويجعلها الموضوع الأساسى لكتابه أسرار البلاغة . ثم نلاحظ أيضا أنه وضع مقياسا لتمييز الكلام ، وهو مقياس موضوعى ، أى أنه يمكن عرض الكلام عليه وتمييزه به . كالسلاسة أى الجريان السهل الذى لا تعثر فيه ، والفصاحة وهى اشراق العبارة ، ثم تخير الألفاظ واصابة معناها ، ثم تلا ذلك عدة أوصاف تتصل بهيكل الكلام ، وأخيرا تعـادل الأطراف ، وهو ما نسـميه الانسجام أو Harmony . ونلاحظ أخيرا نظرته السطحية ، حين يرى أن فن الأدب انما يتجلى فى اللفظ الجميل الذى يحيط بهذه المعانى الشائعة .

وأبو هلال متأثر فى نظرته هـذه بالجاحظ الذى جعل مدار البلاغة حول اللفظ وذلك فى كتابه «البيان والتبيين» . ولكن هل صحيح أن المعانى موجودة بدرجة واحـدة ؟ أين اذن عمليات توليـد المعانى والتأمل العميق والغوص والابتكار ؟ لعل نظرتهم هـذه هى التى تصور لنا نفورهم الشديد من مذهب أبى تمام . وهى التى تفسر لنا أيضا مذهبهم النقدى القائم على الخطأ والصواب من ناحية المعـانى . ولكن الحكم الذى نحكم نحن عليهم اليوم متأثر بمستوانا الآن بعد أن تطور النقـد ومرت تلك العصور الطويلة وبعـد أن استفاضت البحوث فى التجربة الأدبية ، وموقف الناقد منها الا من تلك الجزئيات الصغيرة .

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٥٤ — ٥٧

وينتقل أبو هلال بعد ذلك فيتحدث عن الفنون الشعرية ، ويبدأ بالكلام عن المديح ، ويبين أن من الخطأ فيه العدول عن الفضائل التى تختص بالنفس كالعقل والعفة والعدل والشجاعة ، وهو فى هذا الرأى تابع لقدامة بن جعفر فهو أول من جهر بهذا الرأى وقرره • وقد تكون لهذا الرأى وجهة نظر صادقة ، على أنه لا بأس من المديح بالصفات الجسمية حين تكون متصلة بالصفات النفسية ، فابن قيس الرقيات حين يقول :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

لا يصف ممدوحه بالجمال وحسب ، وانما يهدف الى ما هو أبعد من ذلك ؛ فهو يصفه بصفاء النفس ونقاء السريرة ، فانعكس ذلك على جبينه أو على وجهه. ومن ذلك قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » آل عمران ١٠٦ ، فالبياض هنا اشراق وتهلل لحسن العمل والاخلاص •

ويمضى أبو هلال فيقول ان الهجاء يكون بسلب المهجو الصفات السابقة فى المديح ، والواقع أن هذا الرأى اذا انطبق على المديح ، فانه قاصر فى الهجاء ، فكثيرون من الهجائيين الرائعين ، قد صوروا لنا المهجو فى صورة حركية مضحكة ، وهذا هو التصوير الكاريكاتيرى الذى برع فيه ابن الرومى ، ولا أظن أن وصفه للأحدب الا هجاء ممتازا حين يقول :

قصرت أخادعه وغار قذاله فكأنه متأهب أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

أما النسيب فيجب أن يظهر فيه أثر التوله والوجد ، وطبيعى أن هذه نظرة سطحية للغزل ، فهو أعمق من ذلك بكثير ، فأين صدق الحس والتعبير عن أدق أحاسيس النفس وعواطفها ا الأصيلة ، كذلك أغفل أبو هلال النظر فى أحوال الشاعر وحياته ، فلسنا نطالب عمر بن أبى ربيعة بأن يكون كجميل • ونحن نعرف أن عمر كان يفتن النساء ، وكن يجرين وراءه ويحببن مجلسه • ثم يذكر أبو هلال الرثاء ويرده الى المديح ، وهذه نظرة عقيمة لفنون الشعر ، فهو لا ينظر

لظروف كل فن ودواعيه . فهل دواعى المدح هى دواعى الرثاء ؟ وهل مقدار العاطفة واحدة ؟

هذا هو أهم باب فى الكتاب من الوجهة النقدية ، لأنه قبل ذلك قد تحدث عن حد البلاغة وبعد ذلك نراه يتحدث عن التوجيه الأدبى فى صناعة الكلام ، وهذه الظاهرة قد خفتت الآن بعد أن حلت محلها الثقافة العامة التى أصبحت تراثا أمام الجميع ، فيجد الناشىء النظريات معروضة أمامه .

واذا كان أبو هلال قد وقف عند هذه الحدود ، فان عبد القاهر الجرجانى قد تخطى كل الحدود التى سبقته فى النقد الأدبى ، ووصل الى نظرية جديدة فى النقد العربى ، حين رأى أن المسألة ليست قاصرة على اللفظ والمعنى ، وانما قوة التأثير ترجع الى روعة التصوير ، وفى ذلك يقول فى أسرار البلاغة :

« فالاحتفال والصنعة فى التصويرات التى تروق السامعين وتروعهم ، والتخيلات التى تهز الممدوحين وتحركهم ، شبيه بما يقع فى نفس الناظر الى التصاوير التى يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش ، أو بالنحت والنقر فكما أن تلك تعجب وتخلب ، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ، كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور[1] .

ثم يطبق نظرته هذه فى أبيات كثير التى يقول فيها :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

ومن قبل تعرض ابن قتيبة لنفس الأبيات ، وضربها مثلا للشعر الذى حسن

(١) أسرار البلاغة ص ٣٨٩

لفظه ، فان فتشته لم تجد هناك طائلا.وأبو هلال يسوق هذه الأبيات دليلا على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ فيقول :

« ودليل آخر أن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا وسلسا سهلا ، ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد وجرى مع الرائع كقول الشاعر (ولما قضينا من منى كل حاجة) وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى وهى رائعة معجبة . وانما هى ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان ، وشدت رحالنا على مهازيل الابل ولم ينظر بعضنا بعضا ، جعلنا نتحدث وتسير بنا الابل فى بطون الأودية[1] » .

أما عبد القاهر فانه يسلك فى معالجة هذه الأبيات منهجاً آخر يتفق مع نظريته ، فيطالبنا أولا أن نراجع فكرتنا ونشحذ بصيرتنا ، وتتأمل فى أسرار استحسان الناس لمثل هذا الشعر ، ثم يعود الى الأبيات فيصور لنا كل ما همست به فى نفسه ، وكل ما خلفت فى ذهنه من أثر ، ويخلق لنا الجو الذى قبلت فيه خلقا جديدا ، حتى لكأننا نشهدها رأى العين فيقول : « أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال (ولما قضينا من منى كل حاجة) فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ وهو طريق العموم ، ثم نبه بقوله : (ومسح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر ، ثم قال (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) فوصل بذكر مسح الأركان ما وليه من زم الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة الأطراف على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر ، من التصرف فى فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتظرفين من الاشارة والتلويح والرمز والايماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ، ورجا حسن الاياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان ، واستماع التهانى والتحايا من الخلان

(١) كتاب الصناعتين ص ٥٨

والاخوان • ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة ••• وأخبر بعد بسرعة السير ، ووطأة الظهر ، اذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ... ثم قال بأعناق المطى ، ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والبطء يظهران غالبا فى أعناقها[1] ••• وهذا التحليل يصور منهجه ، وكيف تطور النقد العربى العملى على يده ، فلم يعد جملا قصيرة وأحكاما مختصرة ، ولكنه أصبح جولة يجولها الناقد فى الآفاق التى هام فيها الشاعر ، ثم يعود ليقص على الناس ما رأى ، وليكون المترجم بين الشاعر وبينهم •

هذه القمة التى وصل اليها النقد العربى ، كان ينبغى أن توجه الشعراء وأن تدفع النقاد من بعده ليتطوروا بالنقد ، ولكن الملاحظ أن الشعراء لم يتأثروا ، وأن النقاد لم يتطوروا • وأكبر الظن أن السبب فى ذلك يرجع الى عمود الشعر العربى وموقفهم منه •

يحدثنا المرزوقى عن عمود الشعر فيقول : « انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والاصابة فى الوصف ، ومن اجتماع هذه الأساليب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات ، والمقاربة فى التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتآمها ، على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ بالمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية ، حتى لا منافرة بينهما ، فهذه سبعة أبواب هى عمود الشعر ، ولكل باب منهما معيار[2] » .

هذه القواعد المحددة لم يكن من حق الشاعر أن يخل بشىء منها ، والا اعتبر بعيدا عن الذوق العربى ، وعن طبيعة المثل الأعلى للشعر ورفض الرواة اذاعته • وليس من شك فى أن عناية عمود الشعر بالجزئيات دون أن يرسم معالم شاملة لأسرار الجمال الفنى ، قد ضيق أمام الشاعر العربى فرصة التجديد والابتكار • ولعل ابن قتيبة كان أول من شرح لنا نهج القصيدة العربية ،

---

(١) اسرار البلاغة ص ١٦ — ١٧

(٢) شرح المرزوقى لديوان الحماسة ج ١ ص ٩

وأوقفنا على نظامها المحدد حين يقول : « وسمعت بعض أهل العلم يقول ان مقصد القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وبكى ، وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ، اذ كان نازلة العمد فى الحلول والظعن ، على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتجاعهم الكلأ ، وانتقالهم من ماء الى ماء ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب ، ويصرف اليه الوجوه ، ويستدعى به اصغاء الأسماع اليه ، لأن النسيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ... فاذا علم أنه قد استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له ، عقب بايجاب الحقوق ، فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وانضاء الراحلة والبعير ، فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وزمام التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير ، بدأ فى المديح ، فبعثه على المكافآت ، وهزه الى السماح ، وفضله على الأشباه ... فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب[1] » .

هذا اذن هو نهج القصيدة العربية ، وهو قيد جديد ، على الشاعر أن يحمله راضيا أو كارها ان أراد لشعره الانتشار ، فان حاول التجديد كأبى تمام كان هدفا لسهام النقاد ، يقرر ذلك أيضا ابن قتيبة فيقول : « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، ويبكى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل فيصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذبة الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والورد والآس ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار[2] » .

(١) الشعر والشعراء ص ١٤
(٢) المرجع السابق ص ١٥

من كل هذا نرى أن تلك القيود المرسومة للشعراء قد عاقتهم عن محاولات ، كان يمكن أن تؤدى الى تطور كبير فى الشعر العربى ، بل هى قد عاقت النقاد أيضا فلم ينهجوا فى دراساتهم الا فى الحدود المرسومة ، ولم يستسيغوا محاولة أبى تمام كما قلنا حتى قال ابن الأعرابى فى شعره : « ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل[1] » . ولكن بالرغم من كل ذلك فقد أشاعت تلك الدراسات وعيا نقديا وحاولت بقدر الامكان تقنين المثل الفنية العربية فى الأدب ، وتعليلها تعليلا علميا بعد أن اتصل العرب بالثقافات الأجنبية ، مما لا يمكن أن تقارن بها المحاولات النقدية فى العصر الجاهلى . ونلاحظ أيضا أن عبد القاهر وحده قد بقى على قمة النقد العربى حتى عصرنا الحديث .

ومن الغريب أننا اذا نظرنا الى النقد الكلاسيكى الأوربى وجدناه قريبا قرباً شديداً من النقد العربى الكلاسيكى . فقضية اللفظ والمعنى تشغلهم كما شغلت العرب ويعبر (ماتيو أرنولد) عن وجهة نظر أصحاب المعنى حين يقول : «ان الفكرة هى كل شىء بالنسبة للشعر ، وما خلاها فهو خارج عن جوهره » ، أما أولئك النقاد الذين أدركوا أن المعانى متداولة بين الناس فى كل زمان ومكان ، وأن جمال الشعر يكمن فى تجديد التعبير عن المعانى القديمة ، فهم أنصار اللفظ ، وهم فى النقد الأوربى كثرة هائلة تتفوق على الفريق الأول بكثير ... ولعل (فلوبير) يمثل وجهة نظر هذا الفريق أصدق تمثيل فى قوله : « المهم فى العمل الفنى صناعة الفنان ومهارته لا المضمون[2] » . وكتاب « بوالو » فن الشعر L'art Poétique الذى ألفه عام ١٦٧٤ م يوضح كثيرا من تلك القواعد الكلاسيكية الشبيهة بما رأيناه فى نقدنا العربى . فقد قسمه الى أربعة فصول :

ويتحدث فى الفصل الأول عن مبادىء عامة كموهبة الشاعر ومحاولة تنميتها ، وهذا رأى قديم قاله أرسطو من قبل فى القرن الثالث قبل الميلاد وذلك فى كتابه

(١) الموازنة بين الطائيين للآمدى ص ١٥
(٢) مشكلة السرقات فى النقد العربى لمحمد مصطفى هداره ص ٢٣٤

عن الشعر حين رأى أن انبثاق الشعر فى الانسان يرجع الى غريزتين احداهما غريزة التقليد والثانية غريزة اللحن والنغم ، فمن ساعدته ظروف حياته على تنمية هذا الاستعداد فاضت قريحته بالشعر • ثم يتحدث « بوالو » بعد ذلك عن التعقيد والصنعة ، ثم نراه يمجد العقل والمنطق ويرى اتباعهما فى الشعر ، والقدماء عنده هم أنبياء الشعر الذين حافظوا على تلك القواعد ، فلا بد اذن من متابعتهم • فاذا أردت الوصف فارجع الى « تيوكريت » ، وان أردت المأساة فارجع الى « سوفوكل » وان أردت الملهاة فارجع الى « أرستوفان » وان أردت الحماسة والبطولة فارجع الى « هومير » • وهذا شبيه بما قاله العرب من أن امرأ القيس أشعر الناس اذا ركب والنابغة اذا رهب وزهيرا اذا رغب والأعشى اذا طرب • ثم يتحدث « بوالو » بعد ذلك عن احترام القيود القديمة فى الأسلوب وفى الوزن وفى القاعدة البلاغية والنحوية ، وهو صاحب العبارة المشهورة : « انك لن تستطيع أن تؤثر فى نفسى بهذا الطبل الأجوف وبهذا النغم الجذاب ما دامت العبارة فاسدة التركيب ، وكل كلام يجرى من غير رعاية للصحة لا يعدو صاحبه أن يكون تاجر كلام » •

وينتقل بعد ذلك فيتناول فى الفصل الثانى موضوعات الشعر القصير كالمديح والرثاء والهجاء ، وفى الفصل الثالث الشعر المطول كالملهاة والمأساة والملحمة • وهذا شبيه بما رآه العرب فى المديح والنسيب والرثاء والهجاء مما تناولناه من قبل • وفى الفصل الرابع نصائح عامة فى اشاعة الأدب الخلقى مما التزمه أدباء ذلك العصر أمثال « راسين » و « موليير » •

هذه الأسس التى رآها النقاد فى الشرق وفى الغرب ، ظلت قائمة حتى ثارت عليها المدرسة الرومانتيكية فى الشرق وفى الغرب أيضا • فنحن نجد فى القرن الماضى نفس نظرة الكلاسيكيين عند حسين المرصفى فى كتابه « الوسيلة الأدبية » الذى طبع الجزء الأول منه عام ١٢٨٩ هـ والثانى عام ١٢٩٢ هـ •

والجزء الأول خاص بأقسام البلاغة والثانى فى فنون البلاغة . ويتناول الجزء الثانى وهو ما يهمنا هنا ، الى جانب الناحية النظرية محاولة عملية ، فهو يتحدث عن مقاييس الجودة ، ويسوق أمثلة عديدة من شعر البارودى المعاصر له ، ومن شعر الشعراء القدماء ، ويعلق عليها حسب مفهومه للقيم الفنية ، وهى نفس القيم التى رأيناها عند النقاد والقدماء . فهو مثلا يذكر قصيدة الطغرائى التى مطلعها :

نظرى الى لمع الوميض حنين وتنفسى لصبا الأصيل أنين

ثم يعلق عليها قائلا : « هذا الشعر يستعيدك النظر فيه ، ويستدعيك التأمل فى مطالعه ومقاطعه ، لتعرف من أين كان علو رتبته من البلاغة ، فانك لا تجد الشاعر قصد فيه الى النكات ، وزخرفته بالمحسنات ، كما هو حال المتأخرين ، وانما قصد أن يكون الشعر متخير اللفظ محكم التركيب متحدر السلاسة ، لا يتوقف اللسان فى انشاده مع صحة معانيه وتمكن حدود فصوله[1] » .

ونفس نظرة العرب القدماء فى صناعة الشعر وموضوعاته نجدها عند المرصفى حين يعقد فصلا من كتابه يتناول فيه هذه الناحية فيقول : « ففى الحماس مثلا يكون الكلام مهيجا للقوى مثيرا للغضب باعثا على الحمية ، وفى الغزل يكون سارا للنفوس مريحا للخواطر ، وفى العتاب هاديا للموافقة ومولدا للرضا ، الى غير ذلك[2] » .

بل اننا نجد فى أوائل القرن العشرين أن التيار الكلاسيكى ما زال مستمرا عند بعض النقاد مثل مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « على السفود » الذى انتقد فيه العقاد انتقادات جزئية قائمة على اللفظ وخطئه اللغوى أو على المعنى واستحالته فى أحد الأبيات فى القصيدة . ولكن صلتنا القوية بالثقافة الأوربية قد عجلت فى بداية هذا القرن بانتهاء التيار الكلاسيكى وظهر تيار آخر يسرى قويا متدفقا هو التيار الرومانتيكى الذى وضع أسسه فى نقدنا العربى الحديث العقاد وشكرى ، ورأينا مندور بعد ذلك يطبقه تطبيقا عمليا .

---

(١) الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٥٥٣

(٢) نفس المرجع ص ٤٧٣

القسم الثانى :

الدراسات التاريخية

١ — ملكية الأراضى فى الدولة العربية الإسلامية

٢ — كينيا والحكم البريطانى

٣ — تأثير الحضارة الشرقية على الحضارة الغربية فى العصور الوسطى

ملكية الأراضى فى الدولة العربية الاسلامية

بحث للدكتور على حسنى الخربوطلى

مدرس التاريخ الإسلامى

(١) القواعد الاسلامية لملكية الأراضى :

حين يقرر الاسلام لكل انسان حق الحياة وحق الحرية وحق العلم وحق الكرامة ، يقرر حقا خامسا لكل انسان وهو حق التملك ، ففى جو الحياة الحرة التى توفر العلم وتحفظ الكرامة ، يندفع الناس الى العمل ليكسبوا ما به قوام حياتهم ومعيشتهم ، لا يوصد باب العمل دون واحد منهم ، ولا تستأثر بخيرات الدنيا فئة منهم ، لكل انسان منها بحسب طاقته وجهده وكفاءته « وان ليس للانسان الا ما سعى[١] » ، فاذا حاز شيئا منها كانت هذه الحيازة حقا لا ينازع فيه ولا يغلب عليه .

ليس المال غاية فى ذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل تبادل المنافع وقضاء الحوائج ، فمن استعمله فى هذا السبيل كان المال فى يده خيرا له وللمجتمع ولتملك المال وسائل من أهمها فى نظر الاسلام العمل ، « ان أفضل الكسب كسب الرجل من يده[٢] » ويسمح الاسلام بكل طريق يسلكه الانسان للتملك الا ما كان عن طرق ثلاثة : أولها الظلم ، ولذلك حرم الاسلام الربا والميسر والاحتكار والسرقة وما الى ذلك ، وثانيها الغش ولذلك حرم الاسلام التغرير عند البيع واخفاء العيب فى السلعة وغير ذلك ، وثالثها الاضرار ، سواء كان اضرارا بالفرد ، أو اضرارا بالمجتمع ، أو اضرارا بكيان الدولة العام .

---

(١) النجم : ٣٩ .

(٢) رواه البخارى .

كما يفرض الاسلام رعاية مصلحة الاجتماع عند تملك المال ، بفرض رعاية مصلحة المجتمع أيضا بعد التملك ، لأن المال لله ، والانسان مؤتمن عليه « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه[1] » ، فيد المالك يد استخلاف ، والله جعل المال وسيلة للخير ، فلا يصح أن يستعمل الا فى الخير أى مصلحة المجتمع ، وبذلك تكون الملكية الشخصية ـ فى نظر الاسلام ـ وظيفة اجتماعية .

يكره الاسلام تكدس الثروات فى أيد قليلة فى المجتمع لما يؤدى اليه ذلك من ترف وافساد واستغلال ، يقول الله تعالى فى وجوب اعطاء الفقراء نصيبا من الغنائم « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم[2] » . ولما حدث الخلاف بين الصحابة فى تقسيم أراضى العراق والشام على الفاتحين فى خلافة عمر بن الخطاب كان رأيه عدم تقسيمها وابقاءها فى أيدى المغلوبين ، على أن يكون عليهم خراجها ، ووافقه على ذلك بعض الصحابة ومنهم معاذ بن جبل الذى قال لعمر : « انك ان قسمتها صار الريع العظيم فى أيدى هؤلاء القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك الى الرجل الواحد أو المرأة[3] » ، أى أن ذلك يؤدى الى حدوث ماكرهه الاسلام من تكدس الثروات فى أيد قليلة كما تدل عليه الآية المذكورة .

فاذا جمع المال من الطريق المشروع ، وأنفق منه صاحبه بالاعتدال ، كان مابقى منه فى يد صاحبه مصونا تحميه الدولة وقوانينها ، وعلى المجتمع أن يحترم ملكيته لذلك المال ، « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل[4] » ، ولا تمسه الدولة الا لضرورة اجتماعية .

ومع احترام الاسلام للملكية الشخصية ، فقد جعل فى الثروات الخاصة حقوقا للشعب تأخذها الدولة من تلك الثروات ، لتحقيق التكافل الاجتماعى وغيره مما تحتاجه الدولة ، ولذلك فرضت الزكاة وغيرها .

---

(١) الحديد : ٧

(٢) الحشر : ٧

(٣) ابى عبيد : الاموال . ص ٥٩

(٤) البقرة : ١٨٨ .

ان الاسلام أقام حدودا ووضع أصولا ليقر شؤون الانسان الاقتصادية على قواعد الحق والصدق والعدالة والأمانة ، وقضى أن لا يسير نظامها ولا يعمل عمله من دوران الثروة واكتسابها وانفاقها الا فى ضمن هذه الحدود المرسومة ولا يحيد عنها أبدا . أما طرق استثمار الثروة وتداولها ، فلا يضع الاسلام لها حدودا ثابتة حتمية ، بل يدعها تتطور وتتجدد بمرور الأيام ، فانها مما يساير الحضارة ، وتتشكل وتتعين حسب أحوال الناس وبيئاتهم وما يمسهم من الحاجات فى مختلف مراحل الحياة[1] .

لم يخلق الله الأرض وما فيها من شيء الا للنوع البشرى ، فمن حق كل انسان أن يكتسب رزقه من نعم الله . وهذا الحق يشترك فيه جميع أبناء البشر على قدم المساواة ، لايحرم أحد من التمتع بهذا الحق الفطرى ولا يفضل فيه بعضهم على بعض ، فالاسلام لا يفضل أفرادا أو بيوتات أو طبقات فى الانتفاع بوسائل الرزق ، ولا يعترف بفوارق أو امتيازات تجعل بعض الطبقات أو السلالات أو البيوتات تستبد ببعض وسائل الرزق ، دون عامة الناس فجميع أبناء البشر يستوون فى حق المحاولة والسعى لنيل نصيبهم مما بسط الله على أرضه من وسائل الرزق ، فينبغى أن تتاح لكل واحد منهم فرص هذه المحاولة والسعى .

وكل نعمة لابد فى توفرها للانسان من جهود يبذلها ، ويباح للجميع الانتفاع بها بقدر حاجتهم . فماء الأنهار أو العيون ، وحطب الغابة ، وأثمار الأشجار النابتة فى أرض غير مملوكة ، والأعشاب ، ووحوش الصحراء ، والمعادن ، لا يجوز الاستبداد بها أو احتكارها ، غير أن الذين يريدون استغلال بعضها لأغراض تجارية ، عليهم أن يبذلوا جهودهم من أجل استغلالها ، ويجوز للحكومة أن تضع عليهم الضرائب التى تعود بالفائدة على سائر الناس .

---

(١) المودودى : نظام الحياة فى الاسلام ، ص ٥٧ .

أما ما خلق الله فى الأرض من المتاع لمصلحة عامة الناس وانتفاعهم فلا يجوز أن يهمل أو يعطل ، ولابد لصاحبه من أمرين : أما أن ينتفع به نفسه ، وأما أن يذره ليتمتع به غيره . فيقرر الاسلام أنه لا يجوز لشخص أن يعطل أرضه أكثر من ثلاث سنوات ، وأنه اذا لم يعمرها بالبنـاء أو الزراعة أو غيرها ، فقد صار حكمها بعد ثلاث سـنوات حكم الأرض الموات التى اذا انتفع بها غير صاحبها وأحياها ، لا يحل لصاحبها أن يطالب بها ، بل للحكومة الاسـلامية أن تقطع الأرض لمن شاءت[1] .

يقول المستشرق (ماسـينيون) : ان لدى الاسـلام من الكفاية ما يجعله يتشـدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التى يدفعهـا كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض الربا والضرائب غير المباشرة ، ويقف فى نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجارى ، وبذا يحل الاسلام مرة أخرى مكانا وسطا بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية[2].

(ب) تاميم الأراضى فى الدولة العربية الاسلامية :

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » . أى أن لكل انسان حق الاستفادة من هـذه المواد الطبيعية ، وقرر الفقهاء أنه لا يجوز أن يستأثر بها انسان دون بقية الناس الا بعد احرازها فى الآنية أو ما شابهها . فاذا أدت الملكية الشخصـية لهذه الأشياء الى أن تحبس عن الناس ، أو يتحكم مالكها فى ثمنها أو توزيعها بحيث يتضرر الناس من ذلك وهم فى حاجة اليها ، كان للدولة أن تحول دون هذا الاحتكار ، وجاز لها أن تتخذ الوسائل الكفيلة لاشراك الناس جميعـا فى الاستفادة منها تحقيقـا لمعنى

---

(١) ابن آدم : الخراج ، ج ٣ ، ص ٧٣ — ٧٤ . كان لاصـلاح الأرض ثلاث شروط : أولها اقامة حاجز بينها وبين غيرها ، وثانيها سوق الماء اليها ان امتازت بالجدب أو نزحه ان كانت مستنقعات . وثالثها حرثها جيدا (الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٦٩) .

(٢) من كتاب الاسلام والنظام الجديد لمولانا محمد على ص ٤٥ .

« الشركة » الواردة فى الحديث الشريف ، وذلك يعنى « التأميم » .. ولا شك فى أن النص على تلك المواد الثلاث ليس للحصر ، بل يلحق بها كل ما كان مثلها فى حاجة الناس جميعاً اليها .

أجاز الاسلام «الوقف» فهو ان طبق تطبيقا سليما أدى الى فوائد اجتماعية كثيرة ، وخاصة فى حالة الوقف الخيرى . عرف الفقهاء الوقف بأنه « اخراج العين الموقوفة من ملك صاحبها الى أن تكون غير مملوكة لأحد بل تكون منفعتها مخصصة للموقوف عليهم » ، وهذا هو التأميم .

ومن المتفق عليه أن سول الله حمى أرضا بالمدينة يقال لها « البقيع » لترعى فيها خيل المسلمين[1] . وحمى عمر بن الخطاب أيضا أرضا بالزيدة وجعلها مرعى لجميع المسلمين ، فجاء أهلها يقولون : يا أمير المؤمنين ، انها بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية وأسلمنا عليها فى الاسلام ، على م تحميها ؟ فأطرق عمر ثم قال : المال مال الله والعباد عباد الله لولا ما أحمل عليه فى سبيل الله ماحميت من الأرض شبراً فى شبر[2] .

كان لسمرة بن جندب نخل فى حائط (بستان) رجل من الأنصار ، فكان يدخل عليه هو وأهله ويؤذيه ، فشكا ذلك الأنصارى الى الرسول فطلب منه أن يقلع ، فأبى أيضا ، فقال الرسول : أنت مضار . ثم قال للأنصارى : اذهب فاقلع نخله[3] .

هذه الروايات تبرر تأميم الأرض لضرورة الدولة وحاجة المجتمع ، وتبرر أن أصحاب الحاجات والثروات القليلة أولى بالانتفاع بالمصالح المؤممة من أصحاب الثروات الكبيرة ، وأنه لو لم يفعل ذلك لهلكت رءوس الأموال الصغيرة ، ولزم الدولة أن تكفيهم وعوائلهم ، وأن المصلحة لا تصيب هؤلاء

---

(١) أبو عبيد : الأموال ، ص ٢٩٨ . انظر بحث (الحمى) فى الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٦٤ .

(٢) أبو عبيد : الأموال ، ص ٢٩٩ .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٨٥ .

وهم سواد الشعب ، تتحقق بتحمل ضرر بسيط يلحق أصحاب الحق فى المـال « المؤمم » وهو أفضـل من تحمل ضرر أكبر بالزام خزانة الدولة واعالة تلك الأسر .

وخلاصة القول ، أن « التأميم » وقع فى الاسلام « تشريعا » كما فى الوقف ووقع فى التاريخ الاسلامى « عملا » كما فى الحمى ، وان انتزاع الملكية وقع من الرسول « قضاء » كما فى قصة سمرة بن جندب ، فاذا كانت المصلحة العـامة تحتم « التأميم » وفيه دفع الظلم والضرر عن الناس أو عن فئة كبيرة منهم ، كان التأميم « واجبا » فى تلك الحالات .

وللحكومة — من وجهة النظر الدينية — أن تقترح ما تشاء من الحلول ، وأن تبتدع ما تشاء من الأنظمة ، لضمان هذه المصلحة ، ومنع المنافع العامة من أن تكون ملكا لشخص واحد ، وجعلها ملكا للدولة وحدها . ان حاجات الناس تتسع باتساع الحضـارة وتغير الزمن ، فعلى الحكومة أن تضع يدها — باسم الشعب — على مصادر الثروة والقضاء على المحتكرين من محاولة اسـتغلالها لصالحهم الخاص .

هذه هى قواعد التأميم فى الاسلام ، ولنرى مدى تطبيقها فى الدولة العربية الاسلامية : كان هناك نوعين من الأرض تخضعان للتأميم ، وتعتبر ملكا مشاعا للجميع ، وهى أرض الحمى ، وأرض الارفاق . أما أرض الحمى ؛ فهى الأرض الموات التى يمنع أحيـاؤها حتى تبقى أملاكا عامة فتكون منبتـا للكلأ ومرعى للماشية[1] . ويجرى على أرض الحمى أحكاما ثلاثة : أولها أن تكون للكافة ويساوى بين جميعهم ، الغنى والفقير ، والمسـلم والذمى ، ويسمح لهم جميعا برعى خيلهم وماشيتهم . وثانيها أن هذه الأرض لو خص بها المسلمون اشترك فيها الأغنياء والفقراء ومنع عنها أهـل الذمة . وثالثها أنه اذا خص بها الفقراء والمساكين منع عنها الأغنياء وأهل الذمة ، وفى جميع هذه الحالات لا يجوز لأحد

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٧٦ .

من الولاة أن يأخذ من أصحاب الماشية شيئا مقابل رعيهم فى أرض الحمى[١] ، وكان عثمان بن عفان « أول من حمى الحمى»[٢] ، أما عمر بن عبد العزيز فقد كتب الى ولاته : «نرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة ، وقد كانت تحمى فتجعل منها نعم الصدقات فيكون فى ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات ، وأدخل فيها طاعن من الناس فنرى فى ترك حماها والتنزه عنها خيراً اذا كان ذلك من أمرها وانما الامام فيها كرجل من المسلمين ، انما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء[٣] » .

أما النوع الثانى من الأراضى التى كانت ملكيتها فى الدولة العربية الاسلامية ملكية عامة جماعية « مؤممة » ، فهى أرض « الارفاق » ، وهى أنواع ثلاث : أولها الصحارى والفلوات ، ويمكن للجميع النزول بها للاستيطان أو للراحة أثناء السفر بشرط عدم الاضرار بالآخرين ، ويكون النزول فيها حسب الأسبقية اليها . والنوع الثانى أفنية الدور والممتلكات العامة ، فيسمح بالنزول فيها أيضاً مع عدم الاخلال بمصالح الآخرين . والنوع الثالث أفنية الشوارع والطرق ويسمح باستعمالها حسب الأسبقية مع احترام الآداب والنظم العامة[٤] ، وكان لكل قرية فى الأمصار الاسلامية مرعى ومحتطب ، ويسمح لأهلها باستعمالها بشرط ألا يضر البعض بمصالح البعض الآخر[٥] ، وكان فى بعض المدن قطع أرض فضاء تسمى « الآرى » يسمح لجميع المسلمين أن يتركوا خيولهم فيها[٦] أما المروج والجبال فهى ملك للجميع فيسمح لهم بالاستيلاء على ما فيها من ثمار وزرع[٧] .

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ١٧٧ - ١٧٨
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٦ .
(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٧ .
(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٧٨ - ١٧٩ .
(٥) ابو يوسف : الخراج ص ٥٩ .
(٦) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣١٠ .
(٧) ابو يوسف : الخراج ص ٥٩ .

(جـ) الاسلام وتحديد ملكية الأراضى :

حقا ان الاسلام يحترم حق الملكية الفردية ، لأن الملكية فى حقيقة تكوينها هى الاحتفاظ بثمرات الأعمال التى بذلهـا الفرد أو آباؤه وأجـداده أو أفراد أسرته فيما مضى . ولكن من ناحية أخرى ، اذا اتسعت الملكية ثم تملكت نفس الانسان فانها فى الحقيقة تكون عبودية للمادية ، لأن مالكها أصبح حينئذ خادما مطيعا لها يحرسها ويخدمها ، وقد يضحى بحياته وسعادته وسعادة غيره لأجلها . وحقا أن الاسلام قد شرع أسـباب الملكية ، ولكن من الواجب تحديد هـذه الأسباب بما يتفق مع حياتنا الحاضرة حيث أصبحت طرق الامتلاك متعددة مختلفة اقتصاديا واجتماعيا .

ان ممتلكاتنا ملكنا على التجوز لا على الحقيقة ، ونحن مستخلفون فيه ، لينظر الله عز وجل ماذا نعمل به ، فتحكم تصرفاتنا لنا أو علينا . والى هذا يشير القـرآن الكريم : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » ، وفى آية أخـرى : « وأنفقوا ممـا جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » ، وهدف جميع الأديان قيام التوازن بين الناس ، باقامة العدل الاجتماعى والسياسى بينهم ، وتشريع القوانين المادية والأدبية التى تكفل تحقيق هذه الغاية الكبيرة فيهم . فهل تقف الحقوق المكتسبة أو المغتصـبة لبعض الطوائف دون اصلاح المجتمع العام ، وتحقيق السعادة لأكبر مجموعة من أبنائه ؟ وهو لا يجوز بعدئذ تقييد مبدأ الملكية الزراعية من أجل تحطيم قيود الفقر والجهل والمرض ؟ ان التحديد اذا اقتضته مصلحة الأمة والشعب كان جائزا ان لم يكن واجبا ، وله شواهد فى الفقه الاسلامى ، وسوابق فى التاريخ الاسلامى كما سنرى فى الفصلين التاليين .

(د) انواع الأراضى فى الدولة العربية الاسلامية :

كانت الأراضى التى تدخـل فى حوزة حكومة الدولة العربية الاسـلامية تنقسم بموجب الشريعة الاسلامية ، أربعة أقسام :

(أولا) أرض يسلم عليها أهلها : قال الرسول « ان القوم اذا أسلموا أحرزوا

دماءهم وأموالهم[١] » ، كما قال « من أسلم على شيء فهو له »[٢] . وكان هذا المبدأ ينطبق على الأموال والاراضى . وقال أبو يوسف عنها[٣] : « .. فان دماءهم حرام ، وما أسلموا عليه من أموالهم فلهم ، وكذلك أرضوهم لهم ، وهى أرض عشر .. » وقال أبو عبيد[٤] : « كل أرض أسلم عليها أهلها فهم مالكون لرقابها » .

(ثانيا) أرض يبقى أهلها على دينهم ويخضعون للحكومة الاسلامية بمعاهدة بينها وبينهم : أمر الرسول المسلمين بأن يقوموا لهؤلاء حق القيام بكل ماصولحوا عليه من الشروط[٥] . وقال أبو يوسف[٦] : « وأيما قوم من أهل الشرك صالحهم الامام على أن ينزلوا على الحكم والقسم وأن يؤدوا الخراج ، ويؤخذ منهم ما صولحوا عليه ، ويوفى لهم ولا يزاد عليهم » .

(ثالثا) أرض ينقاد أهلها عنوة : وهؤلاء قد حاربوا المسلمين وقاوموهم حتى غلبوا على أمرهم ولم يذعنوا الا مكرهين . قال أبو يوسف[٧] : « أيما أرض افتتحها الامام عنوة ، فقسمها بين الذين افتتحوها ، فان رأى أن ذلك أفضل ، فهو فى سعة من ذلك وهى أرض عشر ، وان لم ير قسمتها ورأى الصلاح فى اقرارها فى أيدى أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السواد فله ذلك ، وهى أرض خراج ، وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم ، وهى ملك لهم يتوارثونها ، ويتبايعونها ، ويضع عليهم الخراج ، ولا يكلفوا من ذلك مالا يطيقون » .

(١) ابو داود : باب اقطاع الأرضين ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .
(٢) أبو عبيد : الأموال ، ص ٢٨٢ .
(٣) الخراج ، ص ٧٤ — ٧٥ .
(٤) الأموال ، ص ١٤١ .
(٥) ابو عبيد : الأموال ، ص ١٤٣ .
(٦) الخراج ص ٧٥ .
(٧) الخراج ، ص ٧٥ .

(رابعا) أرض لا تكون ملكا لأحد : وتشمل الأرض الموات التى مات أهلها عنها ، أو التى لم يكن لها ملاك . كما تشمل أراضى الصوافى وهى ما أصفته الدولة من أراضى البلاد المفتوحة ، وتشمل عدة أنواع ، منها الارض التى تخلى عنها أهلها ، أو أرض أصفتها الحكومة بعد اخراج أهلها عنها ، أو أراض مات أهلها أو هربوا . ويصف ابن آدم[١] الصوافى بأنها « كل أرض ليست فى يد أحد » . وكان المسلمون يتتبعون فى هذه الصوافى واحدة من ثلاث خصال : فللامام أن يعمر هذه الأرض ويؤدى الى بيت مال المسلمين عنها شيئا وتكون الفضلة له ، أو ينفق الامام عليها من بيت مال المسلمين ويستأجر من يقوم بفلاحتها ويكون فضلها للمسلمين ، أو يقطعها رجلا مسلما قادرا[٢] .

(خامسا) أراضى الاقطاع : كان الاقطاع نوعين ، اقطاع تمليك واقطاع استغلال . أما قطاع التمليك فتنقسم فيه الأرض المقطعة ثلاثة أقسام ، أولها الأرض الموات ، فيقوم من حصل عليها باحيائها ، وثانيها الأرض العامرة ، وثالثها الأرض التى يوجد بها بعض المعادن . أما اقطاع الاستغلال فيستغل صاحب الاقطاع الأرض مقابل دفع العشر أو الخراج ، ولا يجوز أن ترث ذريته حق الاستغلال[٣] . ويجوز أن يمنح بعض العمال وجباة الخراج اقطاعيات بدلا من منحهم المرتبات الثابتة[٤] .

(هـ) نظم ملكية الأراضى فى الدولة العربية الاسلامية :

كانت الدولة العربية الاسلامية تتبع فى تملك الأراضى المفتوحة احدى هاتين السياستين :

١ — نقل ملكيتها الى الدولة على أن يكون عمالها الزراعيون أجراء عليها .

---

(١) الخراج ، ج ١ ، ص ٨ .
(٢) ابن آدم : الخراج ج ١ ، ص ٨ .
(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٨١ وما بعدها .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

٢ - أما تقسيمها الى ملكيات صغيرة بين عمالها حتى يصبحوا جميعا مالكين لها وتزول معالم الملكيات الكبيرة .

لما فتح المسلمون العراق والشام والجزيرة فى خلافة عمر بن الخطاب اختلف الصحابة فى مصير الأراضى الزراعية فى تلك البلاد . أيقسمونها على الفاتحين ، أم يتركونها بأيدى أصحابها ؟ واستقر الأمر على الرأى الثانى ، فبقيت الأراضى فى أيدى الفلاحين ، ومسحت من جديد ، وقدرت عليها ضريبة الخراج ، وكان أساس التقدير أن تقدر غلتها المعتادة ، ثم يترك للفلاحين ما يحتاجون اليه من نفقة لهم ولعيالهم ولمن تلزمهم نفقتهم للسنة كلها مع زيادة يدخرونها للنوائب ، ثم تأخذ الدولة منهم ما بقى .

كان المفروض أن تصبح أراضى العراق التى استولى عليها المسلمون الفاتحون عنوة جزءا من غنائم الفتح[١] ، ولكن عمر بن الخطاب أبى اعتبار سواد العراق غنيمة لجنده ورفض تقسيمه بينهم على هذا الأساس . وبعث عمر الى سعد بن أبى وقاص برسالة يأمره فيها بأن يقسم على الجند المال والسلاح بعد انتزاع الخمس ، وأن يترك الأرض والأنهار[٢] . واختلف المؤرخون فى أسباب ذلك فقال ابن الأثير[٣] ان عمر خاف وقوع الفتنة بين المسلمين . أما ابن آدم[٤] فيذكر أن السواد « ليس مما حازه المسلمون حين ظهروا عليه ، ولو كانوا حازوه وجمعوا ما فيه من السبى والأموال كان غنيمة ليس للامام أن يقفه » . أما أبو يوسف[٥] والبلاذرى[٦] فيذكران أن ما منع عمر من تقسيم السواد أنه أحصى ما يخص كل جندى من هذه الأرض فوجده قدرا ضئيلا ،

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٠
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٧٤ .
(٣) الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .
(٤) الخراج ج ١ ص ١٣ .
(٥) الخراج ص ٢١ .
(٦) فتوح البلدان ، ص ٢٧٥ .

ولذا رأى أن يترك الأرض مادة للمسلمين . أما عمر بن الخطاب فعلل قراره بقوله : « رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد أغنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس ، فوجهته على وجهه ، وأنا فى توجيهه . وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع عليها فيها الخراج ، وفى رقابهم الجزية ، يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين ، المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم ، أرأيتم هـذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد أن تشحن بالجيوش وأدرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ »[1] .

كانت سياسة عمر سياسة رشيدة ، فقد كان توطيـد دعائم الامبراطورية الاسلامية وترقيتها ماديا انما يتوقفان على رفاهية طبقة الفلاحين من سكان البلاد الأصليين ، ولذا كان منع تقسيم الأرض يحقق هذه الأغراض[2] . وقد سبق عمر فى ذلك العالم الاجتماعى الانجليزى « ستيوارت ميل » وغيره من القائلين بعـدم جواز تملك الأرض من قبل الأفراد ، بل الاحتفـاظ برقبتهـا للدولة ، واستغلالها بأسلوب الضرائب أو الايجار أو خراج المقاسمة .

سار المسلمون فى فتح الأندلس على سنة تخالف سنة عمر ، وهى تقسيم الأراضى الزراعية بين فلاحيهـا الذين كانوا محرومين من تملك الأرض فى عهد (الفيزيغوت) قال « دوزى »[3] : « لقد أنقذ الاسـلام الطبقات الدنيا من المسيحيين العبيـد وأقنان الأرض من العبودية والظلم ، وحررهم من سـلطة الاقطاعيين الأقوياء الذين كانوا يعتبرون الفـلاحين لا عبيدا لهم فحسب ، بل عبيدا للأرض أيضا ، ووزعت الأراضى المصـادرة بين عدد كبير من أفراد هذه

(١) كريمر : الحضارة الاسلامية ، ص ٨٢ .
(٢) سيد امير على : مختصر تاريخ العرب ص ٥١ .
(٣) تاريخ الأندلس ، ص ٩٧ .

الطبقات المستغلة المظلومة ؛ وكان تحقيق الملكية الصغيرة مصدرا للسعادة وسببا لازدهار الصناعة فى اسبانيا العربيـــة» . ويقول (ليڤى بروفنسال)[١] : « ان الازدهار الزراعى الذى أصاب اسبانيا بعد الفتح الاســلامى يعود أيضا الى التقسيم الكبير لملكية الأراضى .

---

(١) اسبانيا المسلمة فى القرن العاشر ص ١٦١ (ترجمة الدكتور عبد الرحمن الكواكبى) .

كينيا والحكم البريطاني

للدكتور صلاح العقاد

مدرس التاريخ الحديث

تمهيد :

تثير كينيا أعقد المشاكل من بين المستعمرات البريطانية فى أفريقيا فى وقتنا الحاضر . فان وجود أقلية كبيرة من المستوطنين بها ، قد وجه سياسة بريطانيا نحوها توجيها خاصا لا يتمشى مع السياسة العامة التى اضطرت بريطانيا الى اتباعها فى معظم مستعمراتها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وأعنى بذلك السماح للمستعمرات بالتقدم تدريجا نحو الحكم الذاتى وتخييرها بعد ذلك بين الاستقلال التام أو بقائها فى الكومنولث ، وهذا ما حدث مثلا فى غانة أو نيجيريا ، مع أن السكان فى هذه المناطق ليسوا أكثر تقدما أو وعيا من سكان كينيا . ولكن المسألة هى أنه بالنسبة لكينيا كان لابد من الاتفاق أولا على مشكلة أخرى عويصة وهى :

كيف يكون مستقبل الأوروبيين المستوطنين بالبلاد الذين اعتادوا أن يكون لهم التفوق السياسى والاجتماعى على الأجناس الأخرى فى حالة قيام حكم ذاتى ، وهو الأمر الذى يؤدى بطبيعة الحال الى أن تتسلم غالبية السكان من الافريقيين مقاليد الحكم . ؟

وقبل أن نعالج أنظمة الحكم البريطانى التى أدت الى بروز تلك المشكلة ، لابد أن نعطى فكرة عامة عن أصل سكان كينيا .

معظم السكان الافريقيين ينتمى الى مجموعة البانتو المنتشرة جنوب خط الاستواء . ولكن كينيا مثل معظم الدول الافريقية الناشئة حديثا لا تتحقق بها وحدة السكان من الناحيتين الثقافية والاجتماعية ، فلا توجد بها لغة موحدة ،

كما أن المجموعات القبلية تتفاوت تفاوتا كبيرا من حيث درجة الحضارة وطريقة المعيشة . ذلك أن حدود تلك الدول قد خططت فى الغالب نتيجة لتقسيم الدول الأوروبية للقارة الى مناطق نفوذ . بينما أن القبيلة التى هى الوحدة الأساسية فى المجتمع الافريقى لا تعترف بالوطن الجغرافى . وقد رسمت حدود كينيا فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر نتيجة اتفاقيات عقدت بين بريطانيا وبين الدول ذات الأطماع فى شرق أفريقيا ، وأهمها فى ذلك الوقت ألمانيا التى استولت على الجزء الجنوبى المعروف حاليا بتنجانيقا ، ثم مع ايطاليا التى كانت تطالب حينذاك بالقسم الشمالى من ساحل أفريقيا الشرقى الذى يعرف الآن بالصومال . واعترفت هاتان الدولتان بامتداد منطقة النفوذ البريطانية فى الداخل حتى منابع النيل ، التى تكون حدود كينيا الشمالية والغربية ، وذلك حتى يتسنى لبريطانيا انشاء كتلة من المستعمرات المتراصة من وادى النيل حتى ساحل المحيط الهندى.

والعناصر الرئيسية التى تسكن هذه المنطقة هى :

(أولا) السواحلية الذين يقطنون الشريط الساحلى ، وهم أساسا من أصل بنتاوى ، ولكن تأثروا تأثرا كبيرا بالهجرات العربية والفارسية التى وفدت على الساحل الأفريقى منذ القرن العاشر الميلادى والتى أسست أمارات اسلامية، كان آخرها وأهمها سلطنة زنجبار فى القرن التاسع عشر . وتتميز اللغة السواحلية بمداخلة كثير من الألفاظ العربية الدالة على الشئون الحضارية . وهى معروفة فى جميع أنحاء شرق أفريقيا حتى الكونغو . وكان السواحلية المسلمون يعيشون فى الساحل بمعزل عن القبائل الأفريقية الخالصة التى نعرفها الآن فى كينيا . وذلك حتى حكم السيد سعيد سلطان زنجبار فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وبعد فتح المنطقة الداخلية للتوسع التجارى الذى قام به العرب والسواحلية فى أفريقيا الشرقية بدأت القبائل الأفريقية تفد على الساحل تحت ضغط غارات الجالا الذين أتوا من الصومال ، وذلك مثل قبائل الدروما وغيرها الذين تسامح معهم المسلمون فاحتفظوا بدياناتهم الوثنية وان كانوا قد تأثروا تأثرا كبيرا باللغة السواحلية .

(ثانيا) قبائل الونيكا والواكمبا التى تسكن خلف الشريط الساحلى المواجه لمدينة ممبسة . وبحكم موقع هذه القبائل ظهرت فيها مؤثرات من الحكم العربى الاسلامى فى الساحل . فرؤساء قبائل الونيكا كانوا يدعون بالسلاطين ، ولكن المسلمين لم يهتموا بنشر دينهم بين هذه القبائل بالرغم من أنها خضعت سياسيا فى بعض الأحيان لسلطنة زنجبار . بل على العكس تركت الحرية للمبشرين كى ينشئوا مراكز تبشيرية بين تلك القبائل . ولكنهم لم يجدوا نجاحا كبيرا فان أراضى الونيكة والواكمبا تقع فى أفقر مناطق كينيا . ولذلك كانوا يقبلون على أى داع من الدعاة الدنيين ما دام يقدم لهم منحا من الطعام والكساء . ولنفس السبب أقبلت هذه القبائل على العمل فى خدمة الادارة البريطانية حينما وصل نفوذها الى تلك المنطقة مع امتداد الخط الحديدى الذى أنشىء ليصل بين ممبسة والبحيرات .

(ثالثا) قبائل الكيكويو ووصفها بالقبيلة من باب التجوز لأن كثرة تفرعاتها وعدد الذين ينتمون اليها وهم يبلغون نحو مليون ونصف يجعل من الأصح وصفها بشعب الكيكويو ، وهى أكبر وحدة جنسية وثقافية متجانسة من حيث العدد والأهمية السياسية فى كينيا فى الوقت الحاضر ، حيث أن معظم القائمين بالحركة الوطنية كما سنرى ينتمون الى هذه المجموعة . وكان الكيكويو قبل مجىء الأوروبيين يعيشون فى هضاب كينيا المرتفعة ويستغلون أراضيها الخصبة ، ولذلك كانوا نسبيا أكثر مجتمعات كينيا استقرارا . ومع أن المجتمعات الزراعية لا تتصف عادة بالميول الحربية فان قبائل الكيكويو اشتهروا بمقاومة التوغل البريطانى فى بلادهم ثم بالدفاع عن أراضيهم حين بدأ الأوربيون يستولون عليها وان قيل بأن الأوروبيين استغلوا فرصة غياب بعض فروع الكيكويو هربا من وباء انتشر فى الهضاب حينذاك .

(رابعا): فى اقليم كاڤيراندو الواقع على ساحل بحيرة ڤكتوريا توجد مجموعة بنتاوية أخرى مثل الكيكويو ولكنها تختلف عنها اختلافا كبيرا من

حيث التقدم الحضارى . فحتى بداية هذا القرن كانت تعيش عيشة بدائيـة لم تتجاوز مرحلة العرى .

(خامسا) يوجد بكينيا مجموعة من القبائل تعرف بالنيلية لأن لغتها تشبه لغة الزنوج الذين يعيشون فى حوض النيـل الأعلى مثل الدنكة أو الشلوك . وليس من الضرورى أن يكون الأصـل الجنسى واحدا وأهم النيليين فى كينيا الميزاى والناندى . وتشتهر القبيلة الأولى بنزعتها العسكرية ومقاومة الخضوع للادارة الأوروبية شأنها فى ذلك شأن جميع المجتمعات الرعوية . فهى من هذه الجهة تختلف عن الكيكويو الذين أمكن اخضاعهم للسلطات البريطانية .

وضع الحماية

كانت كينيا تعرف فى الفترة الأولى من الحكم البريطانى بمحمية شرق أفريقيا البريطانية واستمر نظام الحماية منذ سـنة ١٨٩٥ حتى ١٩٢٠ حين حولت كينيا الى مستعمرة تاج ، وأطلق عليها اسم كينيا وهو اسم جبل بالمنطقة .

والواقع أن الفرق بين نظام الحماية والمستعمرة ليس له قيمة الا من الناحية القانونية . أما من الناحية العملية فقد أخضعت كينيا لجميع أنواع الاستغـلال منذ عهد الحمـاية . بل يلاحظ أنه فى ظل نظام الحماية لا تلتزم الدولة الحامية بالاصـلاحات الداخلية والانفاق على سكان البلاد بحجـة أنهم لا يخضعون لادارتها المباشرة . أما حين تصبح المحمية مستعمرة فان الدولة الاستعمارية تعد نفسها مسئولة عن السكان . وبعبارة أخرى انتفعت بريطانيا بمحمية شرق أفريقيا اقتصاديا واستراتيجيا فى ظل الحماية دون أن تحمل نفسها مسئولية الادارة أو رعاية مصالح السكان الأصليين .

وقبل أن تعلن بريطانيا حمايتها رسميا على هذا الجزء من أفريقيا الشرقية ، تولت احـدى الشركات اسـتغلال منطقة النفوذ البريطانيـة فى الساحل من سنة ١٨٨٨ حتى سنة ١٨٩٥ ، ومن المعروف أن كثيرا من المشروعات الاستعمارية

فى ذلك الوقت كانت تتولاها شركات مكونة من رأس مال خاص وتتنازل لها الحكومات فى المستعمرة عن مظاهر السيادة مثل حق عقد المعاهدات واعلان الحروب .

وهكذا تألفت شركة شرق أفريقيا البريطانية تحت ادارة وليم ماكينون ، وحصلت على امتياز من سلطان زنجبار لادارة المنطقة الساحلية التابعة له والتى تمتد الى مسافة عشرة أميال فى الداخل نيابة عنه ، وذلك نظير مخصص سنوى قدر بأحد عشر ألف جنيه ، وكان أصحاب الشركة يعتقدون بأن الضرائب الجمركية التى سيجبونها لحساب الشركة ستدر عليهم الأرباح التى تغطى نفقات الادارة وتزيد عليها . ذلك أن سلطنة زنجبار كانت تستمد فعلا معظم مواردها من الرسوم الجمركية . ولكن الشركة البريطانية التى انساقت فى أعمال توسعية واجهت نفقات متزايدة فاضطرت الى فرض ضريبة أخرى عقارية لم تكن معروفة فى ظل الحكم العربى فاستثارت سخط الرأى العام . وترجع السياسة التوسعية التى اتبعتها الشركة الى عدة أسباب منها : التمهيد لانشاء خط حديدى بين ممبسة ومنابع النيل ليحل محل القوافل العربية فى نقل تجارة أفريقيا ، ومنها مواجهة خطر المهدية المتزايد فى السودان والرغبة فى الاحاطة به من الجنوب فى الوقت الذى تقرر فيه ارسال حملة للقضاء على الدولة المهدية من شمال وادى النيل .

(ثالثا) وقوع حرب أهلية فى أوغندة بسبب الانقسامات الدينية بين المسلمين والبروتستنت والكاثوليك نتيجة نشاط البعثات التبشيرية هناك . ولما كانت بريطانيا حريصة على الاستئثار بالنفوذ فى منابع النيل ، وكانت مضطرة من جهة أخرى لحماية حلفائها البروتستنت فقد تكفلت الشركة بارسال حملة عسكرية عبر أراضى كينيا بقيادة لوجرد سنة ١٨٩٣ الى سنة ١٨٩٤ ، وفى طريقها الى أوغندة كانت الحملة البريطانية تطلب الى قبائل كينيا أن ترتبط مع بريطانيا بمعاهدات حماية فكانت تستجيب لها فى معظم الأحيان .

ولا شك أن هـذه المسئوليات المتزايدة قد أضعفت مركز الشركة ومهدت السبيل لحلول الحكومة البريطانية محلها والسبب المباشر الذى أدى الى سحب امتياز الشركة فى سنة ١٨٩٥ هو وقوع ثورة محلية فى المنطقة الساحلية بزعامة احدى الأسر العربية القديمة فى المنطقة وهى أسرة المزروعيين ، ولما اتسع نطاق هذه الثورة وامتـد بها الوقت حتى اضطرت بريطانيا الى ارسال امدادات من موانى السودان تقرر انهاء امتياز الشركة تماما كما حدث فى الهند عندما ألغيت شركة الهند الشرقية الشهيرة فى سنة ١٨٥٧ بسبب قيام ثورة أهليـة ، وفكرت الحكومة البريطانية فى رد المنطقة الى سلطان زنجبار مقابل تعويض مالى ، لولا أن اعترض المتحمسون للسياسة الاستعمارية وأيدتهم فى ذلك جمعيات مكافحة تجارة الرقيق .

وفى بداية عهد الحماية كان اهتمام بريطانيا مركزا فى الساحل . بدليل أن المقيم البريطانى اتخذ مقره فى جزيرة زنجبار ، ثم انتقل فى سنة ١٨٩٧ الى ميناء ممبسة ولكن بامتداد الخط الحديدى الذى نشطت الحكومة البريطانيـة فى انفاذه منذ تسلم الادارة كان محور الاهتمام ينتقـل تدريجا الى الداخل . حتى اذا تولى السير شارلز اليوت شئون المحمية فى سنة ١٩٠١ تثبت الاتجاه الجديد بسبب تحمسه لفكرة توطين الأوربيين فى هضاب كينيا التى كان الخط الحـديدى قد وصل اليها فى ذلك الوقت . وكان لابد من حمايته فى رأى اليوت بواسطة اقامة المستعمرات الأوروبية حوله ، وهكذا نقل مقر الاقامة العامة الى نيروبى وأمكن تقسيم كينيا الى سبع وحـدات ادارية يقيم فى كل منها وكيل بريطانى كحلقة صلة بين القبائل وبين الاقامة العامة .

الهجرة والاستيلاء على الاراضى

كشف الرحالة الانجليز منذ أواخر القرن التاسع عشر عن صلاحية مرتفعات كينيا لاستيطان الأوربيين واستغلالهم لأراضيها ، وبعد مضى سنتين من وضع شرق أفريقيا البريطانية تحت اشراف الحكومة صدر أول قانون عن تملك الأراضى

بواسطة الأوروبيين سنة ١٨٩٧ ، ولكن أحدا لم يهتم للانتفاع بهذا القانون حتى تولى المحمية سير تشارلز أليوت فأظهر تحمسا شديدا لهجرة الأوربيين الى كينيا لاستغلال هضابها الخصيبة ، كما أنه أبرز أهمية احاطة الخط الحديدى الذى يصل بين المحيط الهندى وأوغندة وعتد الى مسافة ٨٧٠ ميلا بجاليات من الأوروبيين الذين يستطيعون بسهولة نقل منتجاتهم وفى نفس الوقت يحمون الخط من الافريقيين الذين قاوموا هذا المشروع الضخم ، ولا سيما قبيلة المزاى .

وطبقا لقانون تملك الأراضى الصادر فى سنة ١٩٠٢ كان لحاكم المحمية أن يؤجر أى قطعة لا تزيد مساحتها على ألف فدان للمهاجرين الأوروبيين لمدة ٩٩ سنة بايجار تافه قدره بنى واحد للفدان (البنى = ٤ مليمات) ، واذن فهو ايجار شكلى أريد به ستر حقيقة مؤلمة وهى نقل ملكية أراضى الأفريقيين نهائيا الى يد المهاجرين الأوروبيين ، وقد توسع اليوت فى استخدام هذا الحق فدعا الأوروبيين المقيمين فى جنوب أفريقيا الى ترك البلاد التى خربتها حرب البوير ، والقدوم الى كينيا ، وذلك علاوة على المهاجرين القلائل الذين قدموا من بريطانيا. ومن أشهر هؤلاء المهاجرين الأوائل الذين وضعوا أيديهم على مساحات شاسعة فى هضبة كينيا لورد دى لامير ، ولما شرت الحكومة البريطانية بتوسع اليوت فى منح الأراضى للأوروبيين دون أى اعتبار لحقليها من الافريقيين ، واقترحت تقسيم كينيا الى قسمين متميزين : مناطق قابلة لتملك الأوربيين وأخرى تحجز لاقامة الافريقيين . ولكن اليوت لم يوافق على هذا الاقتراح ، فاستقال فى سنة ١٩٠٥ . على أن حركة الهجرة واغتصاب الأراضى لم تتوقف الى عهد قريب فى كينيا . حتى بلغ عدد المستوطنين الأوروبيين ٢٩٠٠٠ يتملكون مساحة قدرها ٤٣٠٠٠ ميل مربع ، وتبلغ كثافة السكان الأفريقيين فى بعض المحتجزات ١٠٠٠ شخص للميل المربع ، بينما نجد أن متوسط الكثافة عموما فى كينيا هو ٢٤ للميل المربع . وحجة الأوروبيين التى يبررون بها الاستيلاء على الاراضى هى أن هذا الاستيلاء فى مصلحة اقتصاديات البلاد لأن الأوروبى أقدر على الانتاج من الأفريقى ، وحجة أخرى مؤداها أن الملكية الأفريقية ليست ملكية ثابتة ، وانما

هى أقرب ما تكون الى حق انتفاع مؤقت تستمتع به القبيلة مدة معينة فى منطقة غير محددة المعالم . فمثلا حين وصل الأوروبيون الى هضبة كينيا ، كانت قبيلة الكيكويو التى اعتادت سكناها قد تركتها تحت تهديد قبيلة الميزاى القوية . ولكن الكيكويو يرون أن علاقة الدم هى الطريقة الوحيدة لانتقال ملكية الأراضى ، ولذلك لم يعترفوا بحق الأوروبيين فى امتلاك الهضبة التى يعتبرونها وطنهم التقليدى وسيكون لهذا الوضع أبعد الأثر فى توجيه حركة المقاومة بكينيا حاليا .

وفى خلال الحرب العالمية الأولى صدر قانون تسهيل اجراءات تملك الأوربيين ، وذلك مكافأة لهم على المساهمة الفعالة فى مطاردة الألمان من شرق أفريقيا . فرفعت مساحة القطعة التى يجوز للحاكم منحها الى ٥٠٠٠ فدان ، ونص صراحة على حق الحاكم فى الاستيلاء على أراضى الأهالى ، وبعد انتهاء الحرب رسمت خطة لمنح امتيازات للجنود المسرحين لتملك الأراضى فى كينيا (Soldier Scheme) كما حصل المستوطنون على حق انتخاب أعضاء فى المجلس التشريعى سنة ١٩١٩

وتتميز الملكية الأوروبية فى كينيا بالروح الاقطاعى ، فكثير من الملكيات تتجاوز عشرة آلاف فدان ، ونستطيع أن نضرب الأمثلة الآتية على مدى اتساع هذه الملكيات : دى لامير ١٠٠٠٠٠ فدان ، لورد سكوت وبلايموث ٣٥٠٠٠٠ فدان ، شركة شرق أفريقيا المتحدة ٣٢٠٠٠٠ فدان ، شركة غابات جوجان ٢٠٠٠٠٠ فدان . ويستخدم هؤلاء الملاك معظم أجرائهم من الأفريقيين ، وذلك نظير منحهم قطعة صغيرة من الأرض يزرعها الأفريقى لنفسه ، ولكن بشرط أن يحدد له المالك نوع المحاصيل التى يزرعها ، ويحرم الملاك الأوروبيون على الأفريقيين زراعة جميع السلع الصالحة للتصدير ، وعلى الأجير الأفريقى أن يعمل نظير الانتفاع بقطعة الأرض ١٨٠ يوما فى أرض المالك الذى يتحكم فى تحديد الأيام اللازمة له ، وحتى يشعر الأفريقى بالحاجة الملحة للعمل فى المزارع الأوروبية فرضت ضرائب رؤوس على الأفريقيين . وكانت العقوبات تفرض الى

عهد قريب على الأفريقيين الذين يمتنعون عن العمل فى مزارع الأوروبيين فى موسم الحصاد أو فى حالة وقوع أوبئة زراعية .

ظهرت وطأة انتزاع الأراضى على الأفريقيين منذ نهاية الحرب الأولى ، فكان من الضرورى البحث عن الوسائل التى تضمن لهم العيش على الأقل ، لا سيما وأن الأوربيين لم يستطيعوا أن يستغلوا جميع الأراضى الشاسعة التى امتلكوها وفى سنة ١٩٢٣ أعلنت الحكومة البريطانية عن سياستها الجديدة فى كينيا ومؤداها أنه فى حالة تعارض أطماع الأوربيين مع مصلحة الأفريقيين ، فان الحكومة البريطانية ستراعى مصالح الأفريقيين .

وكان هذا ضرورة شكلية حتمها وجود نظام الانتداب فى تنجانيقا المجاورة ، وبما أن ميثاق الانتداب يلزم الدولة المنتدبة برعاية مصالح السكان الأصليين وتأمين وسائل معيشتهم ، فقد أصبح من المستحيل على بريطانيا أن تميز فى المعاملة بين قطرين متجاورين يقوم بين سكانهما اتصال وثيق .

وبالرغم من أن الأوروبيين كانوا يبررون سياستهم الاستعمارية فى أفريقيا بأنها تهدف الى نشر الحضارة بين السكان الأصليين فقد كان من الصعب أن ينطبق هذا الهدف على مستعمرات الاستيطان ، حيث تقرر حصر معظم السكان الأصليين فى مناطق خاصة بهم ، لا يجوز لهم الخروج منها الا بتصريح خاص وهو ما اصطلحنا على تسميته بمناطق الاحتجاز (reserves) .

وقد تكدست القبائل الأفريقية فى كينيا فى هذه المناطق مع ملاحظة أنها اختيرت فى أراضى أقل خصبا من هضاب الأوربيين ، ومنذ سنة ١٩٢٢ تعاقبت على كينيا (لجان ملكية) لدراسة أحوال مناطق الاحتجاز وكيفية حماية الأفريقيين من الموت بها جوعا ، وكان أهم هذه اللجان هى لجنة هيلتون فى سنة ١٩٢٨ ، فقد أوصت هذه اللجنة بضرورة تعويض القبائل التى تنزع عنها ملكياتها فى المستقبل بأراض جديدة كافية لضمان بقائها . وألا يزيد ايجار هذه المناطق عن ٣٣ سنة ، وأن يتم ذلك بعد استشارة مجلس القبيلة ، ورغم أن حكومة العمال وافقت على

هذه التوصيةفى سنة ١٩٣٠ فانها لم تستطع أنتحترم وعدها عندما اكتشفالذهب فىكفراندو وهىمنطقة احتجاز خصصتلقبائل الليو . فقد استصدر المستوطنون تشريعا جديدا يعفى ادارة كينيا من تعويض السكان بمساحة مشابهة فى القيمة عند انتزاع الأراضى طبقا لقانونسنة ١٩٣٠ بل يجوز دفع عوض مالى يوضعفىالخزانة المخصصة للاصلاحات الاجتماعية الأفريقية (Narive fund) ولم ينس المستوطنون أن يبرروا خرقهم للوعود بحجة خلقية فقد ذكروا أن استغلال المناجم الذى لا يمكن أن يقوم بها سواهم سيتيح للأفريقيين عملا يضمن لهم معيشة أفضل من تلك التى يحيونها فى مناطق الاحتجاز ، على أن مجلس اللوردات والصحافة البريطانية انتقدت هذا العمل ووصفته بأنه غير خلقى ، ولكن وزارة المستعمرات أيدت مجلس كينيا التشريعى ، وقالت ان المناجم ثروة معدنية ، وتعتبر الأراضى التى تظهر فيها أراضى تاج .

ذلك أن الأراضى فى كينيا تنقسم الى أربعة أقسام من حيث الوضع القانونى لكل منها والادارة البريطانية هى التى تحدد مساحة وحدود كل نوع ، منها أراضى التاج ، وهى قابلة للتوزيع على الأوربيين بشكل ايجار أو منح ، ومنها الهضبة العليا التى يحرم على غير الأوروبيين التملك فيها ثم أراضى احتجاز الأفريقيين ، وهذه كما رأينا معرضة للنزع والتضاؤل رغم ازدحامها بالسكان وأخيرا أراضى المنافع العامة .

والى جانب المستوطنين الأوربيين توجد جالية أخرى من المهاجرين الهنود وهؤلاء يوضعون أحيانا فى طبقة واحدة مع العرب باسم الآسيويين ويخضعون لنفس النظم والقوانين ، وهم يكونون طبقة وسطى بين الأفريقين والأوروبيين ويشتغلون عادة بأعمال الحرف الفنية وبالتجارة فلا تسرى عليهم قوانين الاحتجاز اذ يتنقلون من المدن دون الالتزام بحمل بطاقة خاصة كتلك التى يجب على الأفريقى حملها ولكنهم لا يمتلكون نفس حقوق الأوربيين السياسية فنسبة تمثيلهم فى المجلس التشريعى لا تضارع أهميتهم العددية اذا ما قيست بالأوربيين ، كما

أنهم لا يستمتعون بجميع امتيازات الأوربيين الاقتصادية ، فلا يجوز لهم امتلاك الأراضى فى الهضاب .

وكان الاتجاه العام السائد لدى الجالية الهندية هو الرغبة فى المساواة مع الأوروبيين كطبقة ممتازة على حساب الأفريقيين ، وذلك حتى الحرب العالمية الثانية . ثم حين بدءوا يتحولون الى فكرة الاندماج مع الافريقيين تدريجا ، ففى سنة ١٩٠٦ تظاهر الهنود فى ممبسة احتجاجا على قرار المقيم العام البريطانى فى كينيا بتحريم أراضى الهضاب العليا على الهنود مثل الأفريقيين ، وبعد الحرب العالمية الأولى اتجه اهتمامهم الى المطالبة بالمساواة مع الأوروبيين فى الحقوق السياسية ، فلم تستجب الحكومة البريطانية الا جزئيا لهذا المطلب .

وترجع الهجرات الهندية فى شرق أفريقيا الى عهد دولة الزنج ، اذ اجتذبهم الرخاء الذى شهدته شرق أفريقيا فى ظل هذه الدولة ، وقد وجدهم البرتغاليون حين وصلوا الى المنطقة فى معظم الموانى فى بداية القرن السادس عشر ، والواقع أن التجار الهنود لعبوا دورا هاما فى جميع الأراضى الواقعة حول المحيط الهندى، وأنشأوا فيها جاليات نشطة ، وقد تزايد توافدهم على شرق أفريقيا فى عهد السيد سعيد ، وأصبحوا يحتلون مراكز رئيسية فى اقتصاديات البلاد ، وكان منهم ملتزم الجمرك ، وقدرهم همرتن القنصل البريطانى فى زنجبار بنحو ٤٠٠٠ فى أواخر عهد سعيد ، ولوحظ أن غالبية هؤلاء التجار الهنود (وكانوا يعرفون بالبنيان) ينتمون الى طائفتى الخوجا والبهرا ، وهى من الفرق الاسلامية المتفرعة عن الشيعة . وعلى العموم قدر عدد المسلمين فى ذلك الوقت بـ ٢٥٠٠ من ٤٠٠٠ وكانوا أميل من الهندوس الى الاستقرار فى البلاد ، ويأتى معظمهم من اقليمى كامبى وكوتش المواجهين للساحل الأفريقى ، وكانت العادة السائدة قبل السيد سعيد هى اكتفاء التاجر بالمكوث فترة قصيرة ريثما يكون فى أفريقيا الشرقية ثروة يعتد بها ثم يعود بها الى موطنه الأصلى .

على أن هجرة الهنود الجماعية لم تبدأ الا فى عهد الادارة البريطانية ، وبمناسبة بناء خط أوغندا الحديدى على وجه الخصوص ، فقد قدم للعمل فى هذا

المشروع فقط نحو ٣٦٠٠٠ هندى فى بداية هـذا القرن ، وفى عهـد استقلال سلطنة زنجبار كان الهنود يستمتعون بامتيازات الرعايا البريطانيين ولكن بعد فرض الحماية البريطانية على شرق أفريقيا ومجيء المستوطنين الأوروبيين أصبح من المستحيل معاملتهم على قدم المساواة مع الأوروبيين ، فلم يشتركوا فى المجلس التشريعى الذى أنشىء فى كينيا سنة ١٩٠٧ ، الا أنه بعد نهـاية الحرب العالمية الأولى أنشئت لهم دوائر انتخابية خاصة مكافأة لهم على تعاونهم فى الحرب . وفى أول مجلس تشريعى أخذ فيه بمبدأ التمثيل الطائفى خصص للهنود خمسة مقاعد سنة ١٩٢٣ .

وقد زيدت تدريجا عند تعديل تشكيل المجلس ، ولكن تمثيل الهنود لا يتفق وأهميتهم العددية اذا ما قيس بتمثيل الأوروبيين ، وكما كانت الطائفية تؤثر على الحياة السياسـية فى الهند ، فكذلك عملت السياسـة البريطانية على مراعاتها بالنسبة للجالية الهندية فى شرق أفريقيا ، فقرر للهندوس نصف المقاعد وللمسلمين خمسان ، وذلك تبعا للأهمية العددية ، لكل من الطائفتين .

وهذا يدلنا على أن المسـلمين بعد أن كانوا أغلبية فى عهـد دولة زنجبار المستقلة ، أصبحوا أقلية فى عهد الحكم البريطانى ، والى جانب هاتين الطائفتين توجد أقليات هندية أخرى تعامل معاملة خاصة لاعتبارات سياسـية . فالذين ينتمون الى مستعمرة جوا البرتغالية مثلا ، ليست لهم حقوق سياسية ، ذلك أن حكومة مستعمرة كينيا كانت تشترط الرعوية البريطانية بالنسبة للهنود والعرب الذين يستمتعون بالحقوق السياسية .

وكما أشرنا من قبل تحولت الجالية الهندية فى شرق أفريقيا منذ الحرب العالمية الثانية الى فكرة الاندماج مع الافريقيين ، والاشـتراك معهم فى المطالبة بانهاء الامتيازات العنصرية ؛ وكان الأغا خان من أوائل الزعمـاء الهنود الذين دعوا أتباعهم الى أتباع هذه السياسـة ، ولهذه الدعوة أهميتها نظرا الى أن عـدد

الاسماعيلية فى شرق أفريقيا يبلغ نحو ٤٠٠٠٠ ، ثم أكد الرئيس نهرو هذا الاتجاه حين صرح بأنه على المهاجرين الهنود أن يعتبروا أنفسهم مواطنين أفريقيين والا فليعودوا الى بلادهم . وفى دورة الأمم المتحدة سنة ١٩٥٤ ، انتقد كريشنا مينون مندوب الهند سياسة بريطانيا العنصرية فى شرق أفريقيا ، لهذا كله شن المستوطنون حملة على الجاليات الهندية فى كينيا خاصة واتهموا الهند بأنها تحرض الأفريقيين على (حركات العصيان) ، وبأن لها أهدافا توسعية فى شرق أفريقيا واستدلوا على ذلك بأن الهند أنشأت بعد استقلالها مندوبية سامية بنيروبى لتمثل مصالحها فى شرق أفريقيا ، ومن الواضح أن مبعث هذه الاتهامات هو مجرد الخوف من منافسة الهنود القوية للأوروبيين فى النشاط الاقتصادى . ومع يزيد المستوطنين سخطا على الجالية الهندية تزايد عددها بسرعة فائقة فى جميع أقطار شرق أفريقيا بصفة عامة ، وفى كينيا بصفة خاصة ، وفيما يلى جدول يبين توزيع السكان حسب أجناسهم فى سنة ١٩٥٨ :

أفريقيون :	٥ر٠٠٠ر٠٠٠
هنود :	١٥١ر٧٠٠
عرب :	٣٣ر٠٠٠
أوربيون :	٥٧ر٧٠٠

ويلاحظ أن مفهوم عرب الوارد فى هذا الجدول لا يعنى بالضرورة الانتماء الى الجنس العربى وانما هو مفهوم اجتماعى . يعنى الانتماء الى طبقة التجار المسلمين سواء أكانوا يتكلمون اللغة العربية أو السواحلية .

الحركة الوطنية ونتائجها الدستورية

ان وجود جالية كبيرة من المستوطنين الأوروبيين فى كينيا ، ميز السياسة البريطانية فيها بطابع خاص ، فأصبحت تختلف عن السياسة الانجليزية التقليدية المتبعة فى معظم المستعمرات والقائمة على تدريب الأفريقيين واعدادهم للوصول فى المستقبل البعيد أو القريب الى الحكم الذاتى . ولذلك كان الخلاف بين الادارة

البريطانية وبين النزعات الاستقلالية فى أفريقيا هو فى حقيقة أمره خلاف على الزمن اللازم للوصول الى الحكم الذاتى وليس خلافا على المبدأ . أما فى كينيا فقد كان الحكم البريطانى عائقا يحول دون الأفريقيين ودون المشاركة فى حكم أنفسهم بالرغم من انتشار الوعى السياسى فى السنوات الأخيرة بين عدد كبير من المثقفين .

ذلك أن المستوطنين يتصورون أن اليوم الذى سيتولى فيه الأفريقيون ادارة البلاد ، سوف تضيع فيه مصالحهم ويفقدون جميع ممتلكاتهم التى جمعوها خلال نصف قرن . ويكفى للوقوع فى هذا الخطر المحدق مجرد فقدان الأغلبية فى المجالس التشريعية ، ولهذا يمارسون الضغط على الحكومة المركزية بلندن حتى تبنى سياستها فى كينيا على أساس المحافظة على مصالحهم . فكانت الحكومة ترضخ لمطالبهم حتى وان لم تكن فى معظم الأحيان مقتنعة بتلك السياسة ، ذلك أن نظرة المستوطنين الى مشاكل المستعمرة التى يعيشون فيها تختلف عادة عن نظرة العاصمة فى أوروبا . لأن المستوطن الأوروبى يشعر دائما بأن السكان الأصليين هم أعداؤه الطبيعيون الذين يهددون كيانه فى الحياة ، ويؤدى به هذا الشعور الى التعصب بالجنس ثم يستتر هذا التعصب عادة وراء النعرات القومية.

وفى المستعمرات الخالية من المستوطنين ، كانت السياسة البريطانية تبدأ مراحل التدريب على الادارة بانشاء مجالس استشارية من سكان البلاد يرأسها الموظفون الانجليز الرسميون ويشتركون فيها كأعضاء . أما فى كينيا فقد ظل المجلس الاستشارى المركزى فى نيروبى قصرا على الأوروبيين ، وحتى بعد تحوله الى مجلس تشريعى لم يسمح للأفريقيين بدخوله قبل الحرب العالمية الثانية ومنذ سنة ١٩٠٥ ألف المستوطنون شبه حزب سياسى هو اتحاد الناخبين الأوروبيين وكان يهدف الى نقل السلطة تدريجا من يد ممثلى حكومة لندن فى المستعمرة الى أيديهم . وذلك عن طريق انشاء مجلس تشريعى للبلاد يختار أعضاؤه بواسطة الانتخاب ، وظلت المشكلة قائمة بينهم وبين الحكومة المركزية

على هذا الأمر حتى وقتنا الحاضر الى حد أن المستوطنين كانوا يشيرون أحيانا الى فكرة الانفصال عن الوطن الأم كما فعل المستوطنون فى أمريكا لولا أن ظروفهم لم تكن تسمح بذلك . فهم ما زالوا أقلية وسط أغلبية أفريقية ساحقة . ثم انهم يعتمدون اقتصاديا على مساعدات لندن .

على أن حكومة كينيا قبلت فى سنة ١٩٠٧ دخول عدد من المستوطنين فى مجلس الحاكم الاستشارى ولكن على أساس التعيين لا الانتخاب ، وكانت سلطات هذا المجلس محدودة جدا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ؛ وفى هذا الوقت أرادت الحكومة مكافأة المستوطنين على جهودهم فى الحرب ، فقررت اشراك عضوين منهم فى المجلس التنفيذى للمستعمرة سنة ١٩١٩ ، كان أحدهما لورد دى لامير أقدم مستوطن فى البلاد ، والمجلس التنفيذى هو أشبه بمجلس وزراء فى البلاد المستقلة ، أما مجلس الحاكم الاستشارى فقد وسعت اختصاصاته وأصبح يحمل اسم المجلس التشريعى ، وتقرر سنة ١٩٢٢ الأخذ بمبدأ الانتخاب بالنسبة لعدد من المقاعد وزعت بين الأوروبيين والأسيويين ، ولكن الأغلبية ظلت معينة وأوروبية ، كما أن الحاكم احتفظ بحق الاعتراض على قرارات المجلس .

فمن بين ٤٠ مقعدا يتكون منها المجلس خصص أحد عشر للأوروبيين الذين يتم اختيارهم بالانتخاب وخمسة عن الهنود وواحد عن العرب . وبقى ٢٣ مقعدا يتم اختيارهم بواسطة التعيين منهم ٢٠ للأوروبيين ومعظمهم يختارون بحكم وظائفهم ١ عن العرب ، ٢ عن الأفريقيين . وكان الحاكم يختار هذين العضوين من بين الموظفين الانجليز .

ذلك أن الأفريقيين كما رأينا استبعدوا من المجلس التشريعى ، اما خوفا عن اثارة النعرة الوطنية . أو للاعتقاد بأنه لا يوجد من بينهم أشخاص أكفاء لاحتلال هذين المقعدين فى المجلس ، وانما سمح للأفريقيين بدخول المجالس البلدية والمجالس الاقليمة ، وكانت هذه الأخيرة تبلغ عشر مجالس طبقا للتقسيم

الادارى الذى تم فى كينيا بعد الحرب العالمية الأولى . ومع أن الأفريقيين ظلوا أقلية لاتذكر فى جميع هذه المجالس حتى فى المناطق التى لايوجد بها مستوطنون فقد اعتبر بعض المعتدلين من الانجليز أن اشراكهم فيها سيكون بمثابة مرحلة أولى لاعداد الافريقيين فى كينيا للحكم الذاتى . ولكن هؤلاء الساسة لم يجدوا تأييدا لتخطى هذه المرحلة ، أما المجالس الأفريقية المحضة التى أنشئت على غرار مجالس المستعمرات الأفريقية الأخرى ، فهى مجالس على المستوى القبلى ، وتعمل فقط فى مناطق الاحتجاز ويشرف عليها حاكم المنطقة البريطانى . ومن أهم اختصاصات هذه المجالس الاشراف على الشئون المدنية طبقا لتقاليد القبيلة . ومن ثم تمكنت من المحافظة على الكيان الأفريقى فى مناطق الاحتجاز ، وكان لها أثر كبير فى توجيه الحركة القومية .

ذلك ان الحدود السياسية التى اصطلح عليها الأوروبيون عند تقسيم خريطة أفريقيا ، لم توضع على أساس اجتماعى أو ثقافى أو قبلى ، فكان من المستحيل أن تنشأ حركات قومية على مستوى هذه المفهومات الجغرافية الجديدة فالوحدة السياسية قد تضم أجناس متعددة ، وقد تنتشر قبيلة واحدة على أراضى وحدتين سياسيتين أو بعبارة أخرى مستعمرتين أوروبيتين ، ومن ثم لوحظ أن كثيرا من المستعمرات الأفريقية كانت تصادف مشكلات عويصة عند وصولها الى درجة الاستقلال ، فهل تظل مقيدة بالنظام المركزى الذى دعم فى ظل الحكم الأوروبى ، وحينئذ يجب عليها أن تتجاهل التوزيعات القبلية بالرغم من أن القبيلة ما زالت فى أفريقيا هى الوحدة الاجتماعية التى تتعلق بها عواطف السكان وآمالهم ، أم تراعى هذه الانقسامات العريقة وتتبع نظاما فدراليا ولو على أساس تجمعات أكبر من القبيلة يكون بينها تجانس ثقافى كوحدة اللغة والدين ، وقد صممت غانا عند استقلالها على اتباع الحل الأول ، ولذلك اضطر نكروما الى القضاء على جميع مظاهر المعارضة وحكم حكما مطلقا حتى يثبت النظام المركزى فى وجه النزعات القبلية ، بينما تدل اتجاهات نيجيريا على أنها

ستسير نحو الحل الفيدرالى ، وهو الحل الأمثل لمواجهة المشكلة التى أشرنا إليها

واذا فقد كان الاطار الذى نشأت فى نطاقه أول حركة قومية فى كينيا هو اطار القبيلة ، وحتى الآن لم تتبلور الأفكار القومية بمفهومها الحديث ، ومما أخر ظهور الحركة القومية عدم وجود طبقة متوسطة من الأفريقيين المثقفين . على أن القبيلة التى خرجت منها أول حركة سياسية وهى قبيلة الكيوكيو يمكن وصفها بأنها شعب متكامل لتعدد فروعها وتكاثر عددها بحيث وصل الى نحو مليون ونصف ، ولا ينطبق عليها وصف القبيلة الا لأن علاقة الدم مازالت هى الأساس المعتبر فى الشعور بالتضامن بين أفراد هذه الجماعة .

وكانت جمعية الكيكويو المركزية التى تأسست فى سنة ١٩٢٢ هى أول مظهر عبر عن الاتجاه القومى الذى جـد فى شرق أفريقيا ، ولم تكن لهذه الجمعية أهداف سياسية معينة وانما انحصرت أغراضها فى أمرين رئيسيين وهما :

(أولا) المحافظة على تقاليد القبيلة فى وجه تغلغل الحضارة الأوروبية ، ولاسيما فيما يتصل بالعادات الاجتماعية وخاصة مسألة ختان البنات .

ولذلك اتخذت الجمعية موقفا عدائيا خاصا من المبشرين البروتستنت الذين كانوا يتدخلون فى مثل هـذه الأمور والذين يعتبرون أيضا حملة الحضـارة الأوروبية وناشريها بين الأفريقيين ، وكانت بيدهم جميع شئون التعليم . ولذلك كان من أهم ما عنيت به هذه الجمعية هو انشاء المدارس الخاصة التى تستخدم لغة الكيكويو فى التعليم واصدار الصحف بهذه اللغة الخاصة بينما كانت الهيئات الحكومية لا تستخدم سوى اللغة الانجليزية .

(ثانيا) محاولة استرداد الأراضى التى اغتصبها الأوربيون فى الهضاب ، وذلك حفظا لكيان القبيلة المـادى بعد أن ضاقت بها مناطق الاحتجاز ، ولمـا كانت الهضاب الخصبة مرتعا لقبائل الكيكويو قبل مجىء المستوطنين الأوربيين ، فقد كان ذلك هو العامل الرئيسى الذى دفع بالكيكويو الى السبق فى حركة الكفاح ضد الاستعمار الأوروبى .

ومع أن هذه الجمعية لم تتجاوز فى نشاطها ميدان الصحافة والتعليم ، أو بعبارة أخرى المقاومة السلبية ، فقد انتهزت حكومة كينيا فرصة قيام الحرب فحلت الجمعية سنة ١٩٤٠ ، وعندما سمح للأفريقيين بمزاولة نشاطهم من جديد تألفت جمعية أخرى فى سنة ١٩٤٤ باسم اتحاد كينيا الأفريقى برئاسة جومو كينياتا الذى أراد أن يعطى للهيئة الجديدة طابعا قوميا على أساس المفهوم الجغرافى الحديث لبلاد كينيا ، ولكن ظلت قبيلة الكيكويو تلعب فيها الدور الرئيسى ، وان اشتركت معها قبيلة الواكمبة التى صودرت أراضيها أيضا فى شرق نيروبى لصالح الاستعمار الأوروبى ، مما يدل على أن مسألة استرداد الأراضى ظلت هى المحرك الأول للمعارضة الأفريقية .

على أن الحرب العالمية كان لها تأثير بعيد فى حياة أفريقيا الاجتماعية والسياسية ، فمن جهة ساهم كثير من الشباب الأفريقى فى القتال بجانب جنود الكومنولث ، فكان على بريطانيا أن تخفف من القيود الاجتماعية والسياسية فى البلاد ، ومن جهة أخرى كون الجنود العائدون طبقة جديدة من (بلورتياريا المدن) انضمت اليها طبقة العمال الذين خرجوا من مناطق الاحتجاز ليعملوا فى المصانع التى أنشئت فى كينيا لسد حاجات البلاد بعد أن انقطعت الواردات من أوروبا ، وبذا تحطمت الحواجز الاجتماعية الشديدة التى كانت تفرق بين الأوروبيين والافريقيين قبل الحرب . وتمهد الطريق لقيام طبقة متوسطة من الأفريقيين ، ويمكن وصف اتحاد كينيا الأفريقى من وجهة النظر الأوروبية بالاعتدال ، فقد كان زعماؤه ومن بينهم جومو كينياتا قد أكمل دراسته للعلوم السياسية بموسكو مما هيأ لخصومه من المستوطنين اتهام الحركة بالشيوعية ، ولكن على العكس من ذلك ، لم تكن الحركة تهدف الى طرد المستوطنين أو الاستقلال استقلالا تاما ناجزا . وانما كانت مطالب الاتحاد حول الغاء الامتيازات الخاصة التى تستمتع بها طبقة المستوطنين الأوروبيين والرغبة فى اشراك الأفريقيين فى الحكم وفى النشاط الاقتصادى بما يتفق وأهميتهم العددية ، بل ان قادة

الحركة كانوا يصرحون برغبتهم فى بقاء كينيا داخل نطاق الكومنولث البريطانى اذا تحققت أهدافهم من الوصول الى الحكم الذاتى .

وكان من الممكن أن تساير كينيا حركة التطور الدستورى التى اتبعتها بريطانيا فى كثير من مستعمراتها بعد الحرب لولا تلك المشكلة العويصة المترتبة على وجود المستوطنين الأوروبيين بالبلاد ، فبينما كان الخلاف بين الحركة الوطنية فى غانا مثلا وبين حكومة لندن يدور حول مدى توسيع اختصاصات المجالس التشريعية المؤلفة من الأفريقيين ومدى خضوعها للحاكم العام ، اتخذ الخلاف فى كينيا مظهرا آخر يتعلق بكيفية تكوين هذه المجالس وتوزيع المقاعد بين عناصر السكان ، ولم يكن بوسع حكومة لندن أن تسحب من المستوطنين الأوروبيين سيطرتهم على هذه المجالس وذلك بتوزيع المقاعد توزيعا عادلا بين عناصر السكان المختلفة حسب أهميتهم ، وهكذا ظلت مساهمة الأفريقيين فى الحكم ضئيلة وكل ما استطاعت الحكومة البريطانية عمله سنة ١٩٤٤ هو ادخال عضو أفريقى واحد فى المجلس التنفيذى وزيادة عدد الأعضاء الأفريقيين فى المجلس التشريعى الى ٧ على أن يكون جميعهم معينين بواسطة الحاكم العام ، وهو يختار هؤلاء الأعضاء من بين النواب الافريقيين فى مجلس القبيلة أو مجلس الحى ، ومثل هذه الحلول المنطوية على مبدأ التنازل للوطنيين عن أقل شىء ممكن تعتبر فى الحقيقة تحديا صريحا للشعور الوطنى ، فكانت أكبر حافز على اثارة العنف فى مستعمرة كينيا دون بقية المستعمرات أو المحميات البريطانية فى شرق أفريقيا .

بدأت حركة المقاومة المسلحة فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ على يد جماعة سرية ، يتألف معظم رجالها من قبيلة الكيكويو وتعرف بحركة الماو ماو . وقد أحيطت هذه الحركة بالسرية التامة فلا تعرف مبادئها على وجه التحديد أو طريقة تكوينها والأرجح أن تكون هذه الجماعة تطورا لبعض الجمعيات الدينية التى تعددت منذ العقد الرابع من القرن الحالى وكانت تهدف الى احياء عقائد البانتو وثقافتهم

وكلمة ماو ماو ذاتها غير معروفة الأصل ، فماو بالسواحيلية معناها القسم ، وفى تلك الحالة نفترض أن تكون هذه الكلمة تشير الى أن الانضمام الى الجماعة يسبقه قسم بالولاء ، وأن لهذا القسم أهمية روحية واجتماعية خاصة يدل على هذا ما ورد فى تقارير سلطات الأمن فى كينيا من أن القسم يحاط باحتفالات وطقوس عظيمة .

أما بلغة الكيكويو فان كلمة ماو تعنى أخرج وفى هذه الحالة تشير الى أن المنضم الى هذه الجماعة قد خرج من حالة العبودية الى حالة الكفاح . وتعتقد السلطات البريطانية فى كينيا أن جماعة الماو ماو امتداد لاتحاد كينيا الافريقى ، ولذا قررت حل هذا الاتحاد فى أوائل سنة ١٩٥٣ وقدمت زعيمه جومو كينياتا للمحاكمة وصدر الحكم سنة ١٩٥٤ بسجنه ٧ سنوات ، ولكن كينياتا ينفى بشدة وجود أى صلة بين منظمته السلمية وبين هذه الحركة الثورية .

ولم تتعد حركة الماو ماو طريقة حرب العصابات فى أى وقت من الأوقات ، وان كانت قد بلغت ذروتها فى الأشهر الستة الأولى بعد قيامها ، ولوحظ فى هذه الفترة أن حوادث الاغتيال اتجهت الى الأفريقيين الذين يتعاونون مع الأوروبيين بينما تجنبت الأسيويين وظلت اصابات الأوروبيين ضئيلة نسبية ، ومع ذلك فقد انقسم هؤلاء ازاء حركة الماو ماو الى حزبين . حزب رابطة الأوروبيين بزعامة الكولونيل جروجان وهو متطرف فى عدائه للأفريقيين ويدعو الى التمسك بجميع امتيازات المستوطنين بحجة أنهم يكونون الطبقة المنتجة ، التى تملك وسائل تنمية الثروة فى البلاد ، ولا شك أن فكرة تفوق الأجناس اقترنت فى ذهن المستوطنين بفكرة التفوق الاقتصادى ، والحزب الثانى : يعرف بحزب وحدة كينيا يتزعمه ميشيل بلونديل أحد المستوطنين ، ويدعو هذا الحزب الى ادماج عناصر السكان تدريجا واشراك الافريقيين فى الحكم منذ الآن ، ومن الناحية النظرية فتح باب الانضمام لهذا الحزب لجميع الأجناس ، ولكن لوحظ أن الأفريقيين لم يثقوا به فلم ينضم منهم سوى عدد قليل الى تلك المنظمة .

وفى اعتقاد هذا (الحزب المعتدل) أن سياسة الادماج هى الوسيلة الوحيدة لبقاء المستوطنين فى كينيا ، وأن سياسة العنف يمكن أن تؤدى فى النهاية الى طرد المستوطنين وقطع جميع العلاقات الودية مع بريطانيا .

ولعل حكومة لندن كانت أميل الى سياسة الفريق المعتدل ولكنها لم تستطع أن تتخذ اجراء حاسما يحقق أهداف سياسة الاعتدال ، فان الحقوق التى تقرر منحها للافريقيين فى دستور سنة ١٩٥٤ كانت من الضآلة بحيث أنها لم ترض أكثر الأفريقيين اعتدالا بالنسبة للحكم البريطانى ، وحسب هذا الدستور تقرر مبدأ الانتخاب للمرة الأولى بالنسبة لستة أعضاء أفريقيين يشتركون فى المجلس التشريعى ، وحتى هذا الانتخاب كان فى دوائر محدودة فقد وضعت شروط مالية واجتماعية كى يحصل الأفريقى على حق الانتخاب ، هذا فضلا عن أن أغلبية المجلس الساحقة كانت تتألف من العناصر غير الأفريقية فحسب دستور / ٥٤ ، زيد عدد أعضاء المجلس التشريعى الى ٥٨ موزعين على النحو الآتى :

(١) ٢٩ أعضاء معينون منهم ٩ أعضاء بحكم وظائفهم من بينهم الحاكم الذى يشغل منصب رئيس المجلس ، ٢٠ أعضاء غير رسميين يعينهم الحاكم دون التقيد بنسب عنصرية .

(٢) ٢٩ أعضاء منتخبون منهم ١٤ أوروبى .

وعلاوة على هذا حددت سلطات المجلس ، فهو الذى يقترح القوانين ، ولكن يجب لاصدارها موافقة السلطة التنفيذية . واذا فللحاكم العام البريطانى حق الاعتراض على قرارات مجلس كينيا التشريعى فضلا عن أنه بحكم قوانين الطوارىء التى صدرت بعد قيام ثورة الماو ماو اكتملت له سلطات الحاكم المطلق ومن ثم اتسعت هوة الخلاف بين الحكومة وبين الحركة الوطنية .

وفى سنة ١٩٥٦ عاد توم مابويا وهو زعيم أفريقى نقابى الى كينيا حيث وجد فراغا سياسيا فانتقلت اليه مؤقتا قيادة الحركة الوطنية ومع أنه يعد من

المعتدلين من وجهة النظر البريطانية الا أنه لا يختلف عن جومو كينياتا فى مبدأ المطالبة بالاستقلال الذاتى والأخذ بمبدأ الاقتراع العام لانشاء سلطة تشريعية مسئولة فى البلاد ، وانما يختلف فقط فى وسائل تحقيق هذه الأهداف فيدعو الى المقاومة السلبية ، ومن ثم طلب الى الأعضاء الأفريقيين فى المجلس التشريعى الاستقالة منه ، واستجاب الأعضاء المنتخبون منهم مما جعل حل مشكلة كينيا بالطرق الدستورية أمرا عسيرا . كما أن الحكومة البريطانية لم تكن تعتقد بأن القضاء على الماوماو من الناحية العسكرية يكفى لتسوية المشكلة بصورة نهائية لاسيما وأن حركة الكفاح المسلح قد تختفى مؤقتا من كينيا وتظهر فى مكان آخر بشرق أفريقيا كما حدث فى نياسلاند سنة ١٩٥٩

ولذلك بدأت الحكومة البريطانية تفكر فى التفاوض مع قبول مبدأ الحكم الذاتى ، ولكن نجاح مثل هذه المفاوضات يتوقف على أمرين : أولا مدى تمسك بريطانيا بامتيازات الأقلية الأوروبية . وثانيا تحديد زمن معين لتطبيق الحكم الذاتى ، وهذا ما أصبح حزب العمال ينادى به صراحة من أجل كينيا .

أهم مراجع البحث

The british common weath. London 1958.

Dilly (M) — British policy in Kenya Colony.
Thomas Nelson and Sons, New York 1937.

Eliot — The East Africa Protectorate.
E. Arnold Ltd., Lendon 1905.

Hailey Lord — 1. An African Survey Revised 1958 Oxford University Press, London 1957.

2. Native Adminstration in British African Territories.
H. M. Stationary Office, London 1953.

Kenyata — Facing Mount Kenya.
Secker and Warburg, London 1953.

Padmore — Africa : Britain's Third Empire.

Rawcliff — The Struggle for Kenya London 1945.

Reusch — A History of East Africa — L. 1954.

ومن المراجع العربية يجدر ذكر كتاب السياسة والحكم فى إفريقيا للدكتور عبد الملك عودة .

تأثير الحضارة الشرقية على الحضارة الغربية في العصور الوسطى

للدكتور كمال فريد

مدرس آداب اللغة الفرنسية وحضارتها بجامعة عين شمس

أتاح لى قيامى بتدريس الآداب والحضارة الغربية بالجامعات المصرية فرصة طيبة للبحث فى مدى تأثير الحضارة الشرقية وفضلها على العالم الغربى فى العصور الوسطى فى مختلف الميادين العلمية والفنية .

كان البحر الأبيض المتوسط همزة الوصل بين الغرب والشرق ، وقد لعبت الأندلس والبندقية وجزيرة صقلية دورا كبيرا فى نقل التراث العربى الى الغرب . ففى العصور الوسطى أنشىء كرسى للغات الشرقية بجامعة باريس ، وترجمت عدة مؤلفات عربية فى علم الفلك والطب والرياضة كما ترجم مؤلف فى علم الضوء للخازن الى اللغة اللاتينية حوالى سنة ١٢٠٠ م وقد أفاد العالم الفلكى الألمانى المعروف كبلر من هذه الترجمة .

أنشىء فى القرن الثانى عشر معهد للمترجمين فى توليدو قام بترجمة مؤلفات أشهر الكتاب العرب الى اللغة اللاتينية وكان نجاح هذه الترجمات عظيما ، فقد كشفت عالما جديدا للغرب ، وقد ازدادت هذه الترجمات خلال القرون ١٢ ، ١٣ ، ١٤ . ولم يقتصر الأمر على ترجمة مؤلفات العلماء العرب الى اللاتينية بل أيضا مؤلفات العلماء اليونانيين التى سبق ترجمتها الى اللغة العربية وكانت متداولة فى العالم الاسلامى . وكان للفكر الاسلامى وتفسيرات ابن رشد التى كانت تدرس فى جامعة باريس الفضل فى نشر علوم ما وراء الطبيعة (ميتافزيقا) وطبيعة وعلم أخلاق أرسطو فى أوروبا اذ كان لابن رشد أتباع كثيرون فى باريس . وكان الشرق العربى رمز العلم يؤكد ذلك ارتداء

البرت الأكبر الزى العـربى عند حضـوره الى باريس فى سـنة ١٢٤٥ ليلقى فى الجامعة محاضرة عن أرسطو ، وقد كان العرب يشغلون دائما بال الفرنجة اذ يقص علينا « آچينهارد » مؤرخ شرلمان فى القرن التاسع أن سكان الجبال فتكوا فى أغسطس سنة ٧٧٨ برجال احـدى حاميات جيش شرلمان أثناء عودتهم من شمال أسبانيا مع زعماء ثلاثة كان يدعى أحدهم رولان ، فاذا رجعنا الى الملاحم الشعرية التى قد يكون لها سـند ضعيف من التاريخ ، والتى لاشك أنها من نسج خيال الشـعراء الذين ينسبون الى الأوروبيين البطولات الوهمية التى لا يؤيدها التاريخ نجدهم يروون عن هذه الحادثة أن العرب كانوا يتفوقون على حامية شرلمان مئات المرات وأن رولان هـذا مع صحبه كانوا عشرين ألفـا من الجنود الفرنسيين باغتهم أكثر من مائة ألف عربى مسـلحين يقودهم اثنا عشر قائدا . فشاهد تفوقهم « أوليڤييه » من فوق التل فأسرع الى رولان يطلب منه أن ينفخ فى نفير الحرب لينبه شرلمان الذى وصـفوه بأنه ذو اللحية البيضاء ، والبالغ من العمر مائتى سنة ، مع أنه كان فى السادسة والثلاثين من عمره وقت هذه المعركة ، وذلك لكى يعود شرلمان بجيشه . ثم يروى الشعراء أن رولان رفض فى الأول تنبيه شرلمان ، ثم عاد ونبهه ، وأنه لما التحم العرب بالفرنسيين لم يبقوا منهم سوى ستين رجلا التفوا حول رولان الذى يدعون أنه انتصر على ابن الحاكم العربى ، وقطع يد أبيه بسيفه . ويختمون الملحمة بأن رولان مات فى النهاية غالبا لا مغلوبا ، ويتضح من هـذا الادعاء الخيالى أن العرب كانوا يشغلون دائما بال الفرنجة .

وكان من ضمن العوامل التى أثرت على شتى وسائل الزينة ، وكان لها أثر واضح على الذوق الأوروبى عامة والفرنسى خاصة اقامة الملك لويس التاسع فى كل من فلسطين ومصر . وقد جمع فردريك الثـانى والقونس الخامس حولهما علماء كثيرين من العرب وكانا يعيشان عيشة ترف ذات طابع شرقى . وكان ملوك ونبلاء الغرب يقتنون المصنوعات العربية الاسـلامية ، فاذا اطلعنا على قوائم مقتنيـات الملك شـارل الخامس نجد أنه ورد فيهـا ذكر الأوانى الزجاجيـة

والمنسوجات والمعادن المصنوعة فى البلدان الاسلامية والمنسوبة الى دمشق وغيرها من المدن ، ولو أنه لا يمكننا أن نجزم بأن كل ما ذكر فى هذه القوائم صنع فى الشرق ، اذأن العظماء والنبلاء فى العصور الوسطى أعتادوا أن ينسبوا الى الشرق صنع كل شيء غريب لتكسبه هذه التسمية قيمة كبرى لما توحى به من روعة وجمال الفن فى عصر الخلفاء .

واذا كانت هنالك بعض المبالغة الا أنه قد ثبت أن الغرب كان يستورد المنسوجات الحريرية من دمشق وبغداد والموصل والمنسوجات الصوفية السوداء والحمراء المزينة برسوم تمثل العصافير ذات اللون الذهبى أو الأزرق من أنطاكية و « التفتاه » من بلاد فارس والديبكة (البيكة) المزينة بالزهور الذهبية اللون من الاقليم المصرى ، وكانت الاسكندرية مركزا هاما لتصدير مختلف البضائع الى البلاد الغربية التى كانت تستورد علاوة على المنسوجات ، السجاجيد من آسيا الصغرى وسوريا ومصر والتركستان والقوقاز ، وقد شاهدنا رسمها فى بعض اللوحات القديمة المحفوظة فى البلدان الغربية .

ولم يلبث الغربيون أن أنشأوا بعد ذلك مصانعا محلية لانتاج الأقمشة المختلفة ذات الطابع الشرقى . ولقد أجمعت عدة نصوص على ازدهار الصناعات فى المدن الأندلسية التى اشتهرت بالأقمشة الحريرية المذهبة التى أثارت اعجاب الجميع ، وكانت فى البداية تنقش بعض الأشكال الخيالية على المنسوجات ولكنها اتجهت الى الرسم التجريدى لأنه أكثر توافقا مع الاسلام . وقد انتشرت مثل هذه المصانع فى بالرمو بايطاليا لتغذية الأسواق الأوروبية الهامة بالأقمشة المصنوعة على النمط الشرقى . وكان يقوم بالعمل فى هذه المصانع بعض العمال العرب الى جانب اليونانيين والايطاليين الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على تقليد النماذج البيزنطية والاسلامية ، ولكن لم يستمر الحال طويلا فى هذه المصانع لرحيل العمال العرب الى جنوة وفلورنسا والبندقية على أثر حصول اضطرابات فى المدينة حوالى نهاية القرن الثالث عشر . وقد أنشأت باريس أيضا صناعات عربية أسوة بباقى المدن الغربية الكبرى . ومما يجدر بالذكر أن المواد

الأوليـــة كانت ترد من الشرق . ولم يقتصر الأمر على الأقمشـــة بل امتد الى صناعة الخزف وصياغة الذهب . وهكذا يتبين لنا جليا أن الغرب افتتن بالشرق وصناعاته وحاول تقليدها نظرا لشدة اعجابه بها .

وقد أثر الفن العربى على الفن القوطى وخاصة فى محاولة تقليد الخط الكوفى الذى ظهر فى بعض الكتب الدينية الغربية . وكان الأوروبيون يكتبون أحيانا سورة قرآنية مقلدين الخط العربى على المصنوعات ذات الطابع الشرقى . وقد أكسب الخط الكوفى النقوش التى كانت تعتمد على حرفى الألف واللام طابعا خاصاً .

ويمكننا أن نؤكد اندماج الفن الاسلامى فى حالات كثيرة مع الفن القوطى اذ أنه بعد الخط الكوفى لاحظنا العنـــاية بنقش الزهور والأشـــكال الهندسية المتشابكة التى أبدع فيها المهندسون المسلمون التى زينت المخطوطات القوطية . وهاهو الفنـــان الشهير « ليونارد دى فنشى » قد اقتبس الكثير من روعة الفن الشرقى وأشكاله المتشـــابكة . وكان من بين وســـائل الزخرفة رسم الحروف متشابكة بعضها بخط سميك والبعض الآخر بخط رفيع ، وقد ظهر ذلك فى بعض الكتب الى جانب الزهور . واستعملت وسيلة أخرى للزخرفة برسم نصف ورقة الشجر ذات الحد (المدببة) المنتشرة فى الشرق الاسلامى أو مجموعة من أوراق الشجر والزهور معا ، وكانت هذه الوسيلة مستخدمة فى الشرق لتزيين القرآن الكريم والخزف الفارسى والنقش على العاج فأدخلت فى الفن القوطى ، ويظهر التشابه العظيم بمقارنة بسيطة بين بعض نسخ من القرآن الكريم المزينة فى القرن الثانى عشر وبين بعض الصناعات الغربية فى العصور الوسطى .

واذا تطلعنا الى الجامات « الايقونات » التى تلعب دورا كبيرا فى الاطارات القوطية نجدها مقتبسة أيضـــا من الشرق ، فنرى مثلا أن الدوائر والمنـــاظر المنقوشة على العاج والنقود مقتبسة من الأندلس العربى ، ونجد أن الاطارات الجميلة المصنوعة فى القرنين العاشر والحادى عشر منقوشة على العلب الأندلسية

والمنسوجات الشرقية . ولذا يمكننا أن نقرر أن هندسة الجامات كانت متشابهة فى الشرق والغرب . وأن عصر النهضة قد أعجب بها وأقر أنها منقولة عن الفن الاسلامى . وهكذا يتضح لنا أنه كان لانتشار الزخرفة العربية الاسلامية تأثير كبير على الفن الغربى فى عدة دول أوروبية كايطاليا وفرنسا وألمانيا ، كما كان لفن العمارة العربى تأثير عظيم على الفن القوطى فى المبانى الدينية والقصور والحصون نتيجة للحروب الصليبية خاصة . وقد سرت أيضا روح الفن العربى من صقلية الى أنحاء أوروبا .

فاذا انتقلنا أخيرا الى الموسيقى العربية نجد أنهـا أثرت على الموسـيقى الغربية باعتراف كبار الموسيقيين الأوروبيين فى القرن الثالث عشر . ونلحظ جليا أثر الأنغام والألحان العربية فى الموسيقى الاسـبانية بوجه خاص واطلاق أسماء بعض الآلات الموسيقية العربية على الآلات الغربية فسمى العود « لوت Luth » والقيثارة « جيتار guitare » والرباب « ربيك rebec » . وقد أثر الشعر الغنائى العربى العـاطفى على شعراء جنوب فرنسـا المرتزقين بآلاتهم الموسيقية حتى أنهم سموا « بالطروبادور troubadour » نسبة الى دور الطرب العربية .

وخلاصة القول أن الحضارة الشرقية أثرت تأثيرا مباشرا على الحضارة الغربية فى العصور الوسطى .

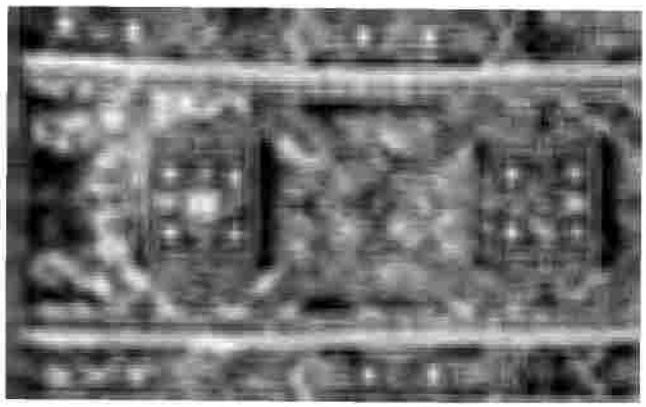

قماش اندلسي مغربي مطرز بمتحف كلوني بفرنسا
يرجع تاريخه الى العصور الوسطى

سفر الرؤيا المزين بالخط الكوفي بسان سيفير بفرنسا ، ويرجع تاريخه الى سنة ١٠٢٨ م تقريبا

كتاب مزخرف بالخط الكوفي كان لدى الملك لويس التاسع ، يرجع تاريخه الى سنة ١٢٥٤ م تقريبا

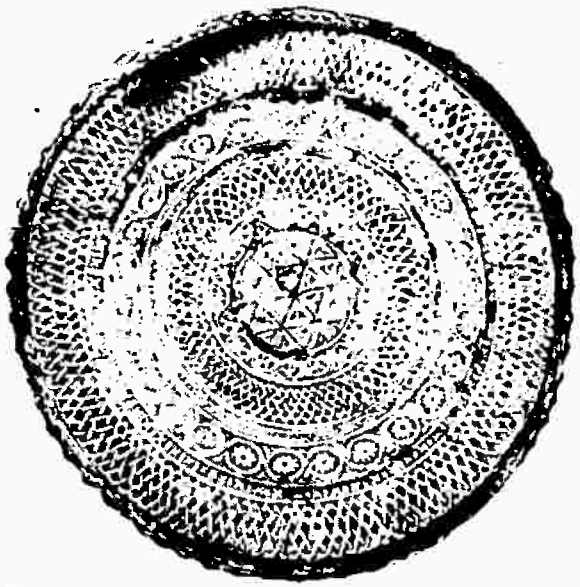

طبق فاكهة فارسى منقوش عليه الزهور والاشكال الهندسيه المتشابكة من القرن الحادى عشر

كتاب بلجيكى مرسوم عليه الاشكال الهندسية المتشابكة ، يرجع تاريخه الى اوائل القرن الرابع عشر

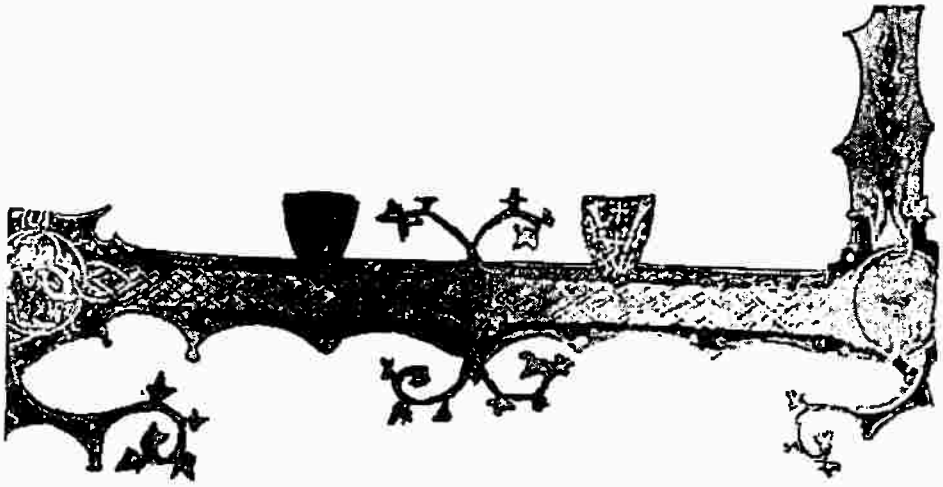

كتاب انجليزى مزين بالاشكال الهندسية المتشابكة يرجع تاريخه الى اوائل القرن الرابع عشر

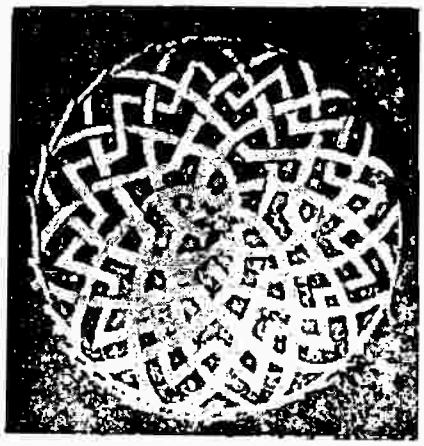

كاس (سلطانية) مزين بالاشكال الهندسية المتشابكة صنع فى قاشان ببلاد فارس فى القرن الثالث عشر

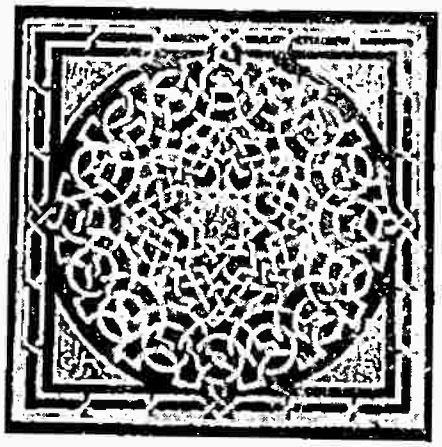

قرآن مغربى لمولاى زيدان .. مزخرف بالاشكال الهندسية المتشابكة ، يرجع تاريخه الى العصور الوسطى

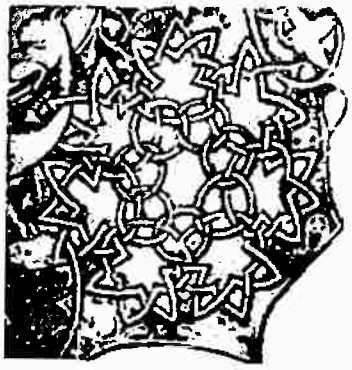

كتاب مزامير مزين بالاشكال الهندسية المتشابكة يرجع تاريخه الى أوائل القرن الرابع عشر

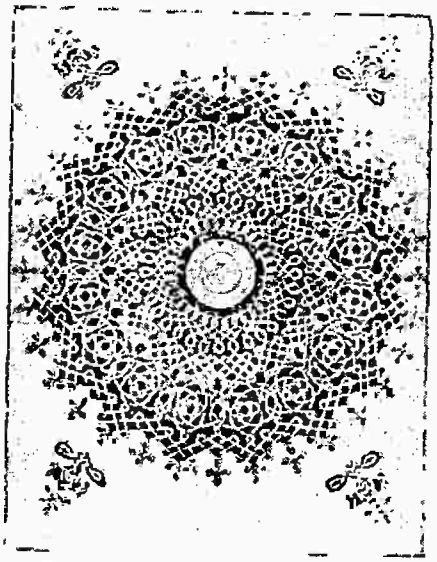

اشكال متشابكة للفنان الايطالى الشهير ليونارد دى فنشى

زخرفه من العصر العباسى معتمده على نصف ورقة الشجر ذات الحد ببلدة سامره يرجع تاريخها الى حوالى سنة ٨٣٦

خطوط فارسى مزين بورق الشجر يرجع تاريخه الى سنة ١٣٠٠ م

عاج منقوش به أنصاف أوراق الشجر بقرطبة من القرن الحادى عشر

كتاب دينى بمتز بفرنسا مزين بأنصاف أوراق الشجر من أواخر القرن الثالث عشر

خطوطات محاطة باهداب كالسجاجيد الشرقيه

نسخة من القرآن الكريم مزخرفة فى سنة ١١٨٦ ..

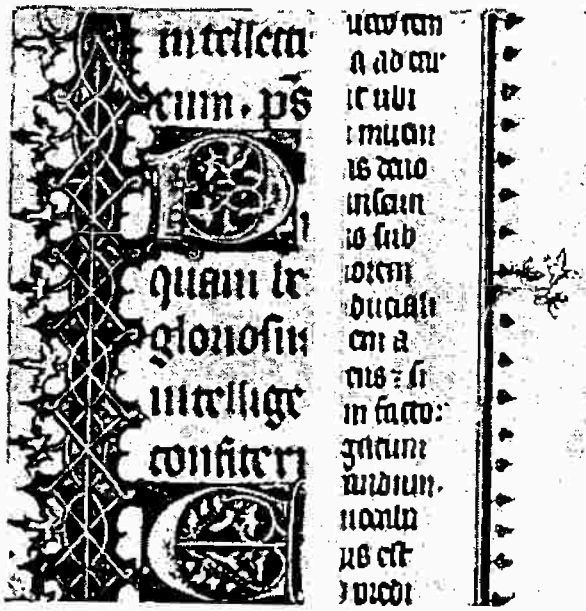

كتابان من الكتب الدينية بمدينتى لوسون وبيلفيل بفرنسا من القرن الرابع عشر

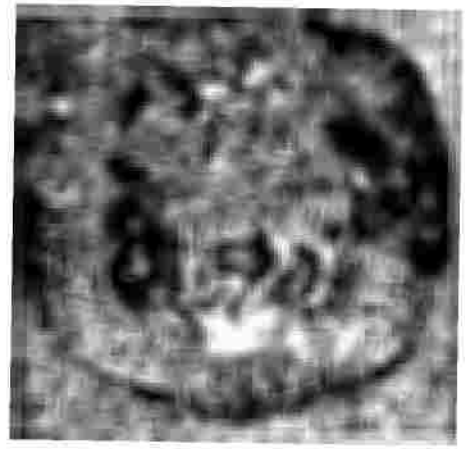

جامة منقوشة على منسوجات شرقية من القرن
الحادى عشر موجودة بمدينه دورهيم بانجلترا

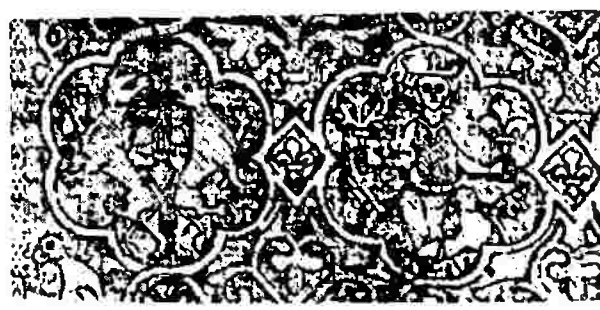

جامات منقوشه على منسوجات ألمانية بدير ايزينهاجن من النصف الثانى
من القرن الثالث عشر

جامات منقوشة على النحاس بالموصل يرجع تاريخها الى سنة ١٢٢٨ تقريبا

جامات منقوشة على منسوجات المانية بدير ايبسدورف من اواخر القرن الثالث عشر
واوائل الرابع عشر

بقايا الحصن الذى شيده ريتشارد قلب الأسد سنة ١١٩٦ م ، واتم بناءه
الملك فيليب أوجست بعد استيلائه عليه فى سنة ١٢٠٤ م ، ويتجلى فى هذا
الحصن تاثير الحصون الفلسطينية

القسم الثالث :

الدراسات التربوية

١ — اختبار الميل نحو تعلم التاريخ

دراسة تطبيقية لحالات بعض المؤرخين المعروفين

٢ — التوجيه الفنى (التفتيش)

اختبار الميل نحو تعلم التاريخ

دراسة تطبيقية لحالات بعض المؤرخين المعروفين

للدكتورة حكمت أبو زيد

استطاع تيرمان[١] فى دراسته للأطفال الموهوبين أن يلقى ضوءا على العوامل التى أدت الى نجاحهم فى الحياة ، كل فى ميدانه .

وهناك الكثير من الدراسات التى تستعرض نمو ميل وقدرات التلاميذ فى بعض المواد الدراسية كالقراءة والحساب[٢] .

وتعتمد بعض هذه الدراسات على تحليل لهذه القدرات والميول وتطورها فى شخص معين بالذات ، وتعرف باسم دراسة الحالات (Case Studies)

وللدكتورة فلمنج[٣] تعليق جدير بأن نسجله لها فى هذا الصدد هو :

ان أولئك التلاميذ الذين أحرزوا نجاحا فى دراسة التاريخ لم تدرس حالتهم دراسة تحليلة ، كما حدث فى الدراسات المشابهة كالقراءة وكاللغة الدارجة ، بيد أن تلك الدراسات قد أشارت بوضوح الى أن هناك رابطة قوية بين النجاح وبين الحالة الاجتماعية والاقتصادية ، وبين مدى ما حصله التلميذ من خبرات وما وعاه من معلومات .

---

(١) Terman, Lewis M. and Oden, Melita H. et al. The Gifted Child Crows Up. Twenty-five Years Follow-up of a Superior Group Stanford University Press. Stanford. California. Vol IV., Genetie Studies of Genius 1947.

(٢) Fred, J. Schonell : Backwardness. In The Basic Subjects, Oliver and Boyd, Edinburgh and London, 1946.

(٣) Fleming, C. M. Research and the Basic Curriculum. University of London Press Ltd. Second Edition, 1952. pp 109 - 110.

كما أنه توجد دلائل أخرى توصلنا الى تقييم قدرة التلميذ العامة ، وعاداته الناجحة فى الاستذكار كالمثابرة ، والأمانة فى التحصيل ، والتحرز من عوامل التشتت . كما أن للصحة العامة وسلامة الحواس ، ولا سيما حاستا الابصار والسمع أثرها الهام ، الى جانب التدريس الناجح ، والكتب المدرسية الملائمة ، وشعور التلميذ بالمسئولية ، واستعداده لتقبل مثل هذه المسئولية .

فى هذه الفقرة لفتت (فلمنج) الأنظار الى العوامل التى يمكن أن تؤدى الى النجاح فى تعلم التاريخ ، كذلك بينت بوضوح أن طريقة (دراسة الحالات) طريقة هامة فى بحث مشكلة تعلم التاريخ . وثم عامل واحد ضمنته أفكارها ، وان كانت مرت به مر الكرام على ماله من أهمية ، نرى أن نلفت النظر اليه وهو الميل (Interest) ، ذلك الذى أصبح يحتل مكانا فى جميع نظريات التعلم .

ولما لم تكن هناك طريقة أفضل لمعرفة تطور الميل نحو مهنة من المهن أو مادة من المواد الدراسية ، الا بتقصى عوامل نجاح هؤلاء الناجحين فى هذه المهنة أو تلك المادة ، رأيت أن أتتبع بالدراسة ، تراجم بعض المؤرخين الناجحين سواء أكانت تراجم ذاتية (Autobiographies) أو غيرية (Biographies) ورأيت أن هذه الطريقة هى أفضل الطرق الميسورة والتى تدنو من طريقة دراسة الحالات دنوا كبيرا ، مع ادراكى لحقيقة العيوب التى تعانى منها (دراسة السير) والتى من شأنها أن تقلل من القيمة الموضوعية للنتائج التى حصلنا عليها ويمكن اجمالها فيما يلى :

١ — ان الصورة التى يصورها لنا الكاتب ، لا نستطيع الاطمئنان الى أنها الصورة الدقيقة التى تصور الحقيقة من جميع نواحيها ولا سيما من الناحية التى تتطلبها فى مثل هذه الدراسات الموضوعية ، وذلك مع ملاحظة الاحتياطيات التى تراعى فى هذا المجال[١] .

---

(١) Allport, Gordon W. Personality. A Psychological Interpretation. New York. Henry Holt & Company. 1937. p 395

٢ — ويلاحظ أيضا على كتاب السير أنهم — وقد يكون هذا رغما عنهم — يجانبون الصواب فيما ينقلون الينا من تراجم ، وفى هذا مايعارض طريقة البحث فى علم النفس الحديث ، التى تنادى بوجوب تحرى الدقة فى المعلومات عن الشخصية التى يترجم لها [١] ، هذا بالاضافة الى الافتقار الى معلومات أساسية عن الشخصية مثل مستوى القدرة العامة ، وانماط السلوك وصفاتهم الشخصية .

٣ — وثم عيب آخر ، يبدو واضحا هو أن تلك التراجم أو السير تتناول قصص نجاح أبطالها فى ميادينهم الدراسية ، فهل من الممكن أن تطبق هذه على التلاميذ فى المدارس العامة ؟ !

ومع هذا كله ، فان من المستطاع أن تطبق دراسة السير فى تحليل عوامل نجاح بعض الناجحين فى دراسة التاريخ ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — استخدم الكثيرون من علماء النفس فى دراسة الحالات طريقة السير هذه ، أمثال (كاتل Cattell)[٢] و (وودز Woods)[٣] و (كوكس Cox)[٤].

وهم يعتقدون أن الدراسات السيكولوجية المؤسسة على الحقائق التاريخية والمقتبسة من سير الغابرين والحاضرين ، تمتاز لا بطرافتها فحسب ، ولكن بقدرتها أيضا على ايصالنا الى نتائج تقريبية .

٢ — غير أنه يجب أن نلفت الأنظار الى النتائج التى نصل اليها عن طريق هذا التحليل يجب أن تؤخذ بشىء من الحذر [٥] ، أى أن قيمتها

---

(١) Terman, L.M. editor to Cox, C.M The Early Mental Traits of Three Hundred Genuises, Genetic Studies of Genius, Vol. II. California Stanford University Press, 1926, Preface p. VII

(٢) Cattell, J. Mckeen, " A Statistical Study of Eminent Men. " Popular Science Monthly, February, 1903. pp. 359 - 377.

(٣) Woods, Freurick Adams. Mental and Moral Heredity in Rovalty : A Statistical Study in History and Psychology, New York. Holt 1906.

(٤) Cox. C.M. Op. Cit. كوكس : المرجع المذكور .

(٥) كوكس : (Cox) المرجع السابق : ص ٦

الموضوعية مرتبطة بهذا الشخص بعينه فى ظروف معينة . وبعبارة أدق ، يجب أن تؤخذ كعينات لأفراد أحرزوا نجاحا فى ظروف مواتية .

الأسس التى بنى عليها اختيار الشخصيات التاريخية :

أرى من المفيد أن ألخص الأسس التى بنيت عليها اختيارى للثلاث شخصيات وهى :

١ — تمثل كل شخصية نمطا مستقلا فى الاتجاه ، ولون الدراسة التاريخية .

٢ — جميع المختارين من المؤرخين قد ترجموا لأنفسهم أو كتبوا مذكراتهم

٣ — جميع المؤرخين ينتمون الى بيئة واحدة — البيئة الانجليزية — لكى تتيسر مقارنتهم بعضهم ببعض وهم : (تريفليان) ، و (چون ستيوارت مل) ، و (جيبون) .

ولقد شاءت (كوكس) فى بحثها المذكور أن تضم فى قائمة الشخصيات الموهوبة المؤرخين : الثانى والثالث[١] ، فقررت مستوى القدرة العقلية العامة (لمل) بـ ١٩٠ درجة[٢] ، و (جيبون) بين ١٤٥ — ١٥٥° درجة[٣] ، ولم يصل الينا القدرة العقلية العامة (لتريفليان) المؤرخ المعاصر ، وربما لهذا السبب قد أغفلته قائمة (كوكس) .

ولقد رأيت ألا أكتفى بما كتبه هؤلاء عن أنفسهم[٤] ، وأن أرجع الى ماكتبه

---

(١) قدر مستوى القدرة العامة ، ثلاث حكام منفردين وهم تيرمان (Terman) ، ميرل (Merrill) كوكس (Cox) ، أنظر المرجع السابق . المقدمة ص VIII .

(٢) كوكس (Cox) المرجع السابق ص ٧٠٧

(٣) كوكس (Cox) المرجع السابق ص ٥٢٨

(٤) Trevelyan, G. M. An Autobiography and Other Essays, Londan, Longmans, Green and Co. 1949. pp 1-51 - ص ١ — ٥١

— Mill, John Stuart : Autobiography, Preface by Laski, H. J. The World's Classics - Geoffrey Cumbelege, London, Oxford University Press 1942.

— Gibboh, Edward, The Autobiography of Edward Gibbon, Edited by Oliphan Sneaton, Everyman's Edition 1911.

الآخرون عنهم ؛ لأن فى هذا المنهج ضمانا لتجنب ما يخشى أن نقع فيه من خطأ اذا ما اعتمدنا على أحد المصدرين منفردا .

ويجمل بنا قبل أن نأخذ فى تحليل هذه الشخصيات فى ضوء ما أسلفنا من أهداف لهذا البحث ، أن نحدد مشكلة أصل وتطور الميل نحو التاريخ ، ذلك لأنها مشكلة تهم المربى بوجه خاص .

لقد أصبح من المسلم به [١] ، أن الميل للتاريخ ميل بدائى وطبيعى معا ، سواء كان ذلك فى الفرد أو الجماعة ، الصغار منهم والكبار اذا ما صب فى قالب قصصى أخاذ . ولعهد قريب كانت الطريقة المثلى لتدريس التاريخ هى : (الطريقة السردية) غير أنه فى غضون القرن التاسع عشر ، تغيرت النظرة الى التاريخ ، وأصبح هدف طالب التاريخ هو تحرى الحقيقة والتأكد منها . الأمر الذى أثار مشكلة أخرى هى : هل سيظل التاريخ يجذب الصغار فى شكله الحديث (البعيد عن الأسلوب القصصى الأخاذ ؟) كما يجذب الكبار ؟

أجاب (راوزى Rowse)[٢] عن هذه المشكلة عندما فرق بين مرحلتين أو على الأقل بين شكلين من أشكال الميل نحو التاريخ :

١ — ميل الأطفال للتاريخ ، يمكن أن يقارن بميلهم للقصة .

قصة السندباد البحرى مثلا أو قصة سنوحى أو قصة الملك آرثر .

٢ — ميل الراشد الى معرفة الحقائق وتفسيرها فى القصة التاريخية التى يدرسها .

وليس من اليسير أن نجيب على هذه المشكلة أو على غيرها مما له علاقة بنفس هذا الموضوع ما لم نتتبع الميول والتحصيل الدراسى للصبية الثلاثة

---

(١) فلمنج (Fleming) ـ المرجع السابق ص ١٠٤

(٢) Rowse, A. L. The Use of History, Published by Hodder & Stoughton Ltd., for the English Universities Press, London 1946 - p. 43 (ص ٤٨)

الذين أصبحوا فيما بعد من كبار المؤرخين المشهورين ، وذلك فى تصوير تحليلى يعرض لحياتهم وأوجه نشاطهم .

اولا - تريفليان (G. M. Trevelyan)[١] :

يمكن تحديد العوامل التى وجهت ميول (تريفليان) نحو التاريخ فيما يلى :

١ - البيئة الجغرافية والتاريخية :

أمضى (تريفليان) مرحلة طفولته فى مقاطعة (ووروك شاير Warwickshire) تلك البيئة التى نشأ فيها شكسبير ، وقد قام هو بوصفها عندما عبر عن مقدار تأثيرها فى اتجاهاته وميوله فقال :

ياله من تراث ضخم ، لصبى ألفى نفسه يفكر بإيمان عميق بأن الشعر والتاريخ وارتياد الريف فى نزهات شاعرية يخلو فيهاالصبى الى نفسه هى أمتع ما فى الوجود[٢] .

وثم حادث بالغ الأهمية فى تاريخ هذا المؤرخ العظيم ، هو أنه شاهد وهو طفل دون السابعة مسرحيات شكسبير التاريخية الخالدة تمثل على مسرح شكسبير القديم (سترادفورد Stradford) .

وارتسمت بمخيلته بما فيها من أحداث الماضى التى كان لها أبعد الأثر فى تكييف اتجاهات (تريفليان) العقلية .

٢ - البيئة المنزلية :

كان لوالده — وللوالد تأثير كبير على توجيه ميول ابنه واتجاهاته العلمية ، فهو ينطبق عليه قول الشاعر :

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه ! !

---

(١) تريفليان . ولد عام ١٨٧٦ ، وكان أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كمبردج ، وله مؤلفات قيمة منها « تاريخ انجلترا » .

(٢) تريفليان . الترجمة الذاتية المرجع المذكور ص ٣

وكان أبوه مؤرخا ، وأراد أن يخرج من ابنه مؤرخا على غرار[١]، فاتخذ منه صديقا ، وتولى تنشئته على هذا النحو ، بجميع الوسائل التى تكفل له هذا القصد ، من بينها قص القصص ورواية الأحداث والشخصيات التاريخية الطريفة كما درجت أسرته على تغذية هذا الميل فيه بالوسائل المعينة كاللعب التى تمثل الجنود والآلات الحربية ، ورسم خطط المواقع والمعارك بصورة محسوسة ، ولا سيما معارك نابليون . هذه العادة المتأصلة فى الأسرة منذ عهد بعيد ، قد أخذ بها الطفل الى حد أن كرس مدة طويلة من حياته فى المستقبل كمؤرخ لدراسة وللكتابة عن المعارك والمواقع الحربية .

٣ ـ البيئة السياسية :

وعندما بلغ (تريفليان) الرابعة من عمره سنة ١٨٨٠ ، شارك اخوته الكبار فى حماس ذلك الجو الذى تخلقه الانتخابات العامة . وعندما بلغ السادسة تبوأ والده رئاسة الوزارة[٢] فى حكومة ايرلندة فى هذا الوقت الذى اتسم بطابع القلق وبالخلاف بين البلدين ـ انجلترا وايرلندة ـ الأمر الذى ترك أثره فى نفسية الصبى الصغير ، وذلك عن طريق خبرة غير مباشرة بالحوادث السياسية المعاصرة لالتصاقه التصاقا تاما بأبيه ، الذى كان قد تعود أن يفضى لابنه بآرائه وتعليقاته على الحوادث السياسية المختلفة .

٤ ـ نشاته العلمية :

الى جانب هذه العوامل البيئية التى تأثر بها (تريفليان) فقد درجت مربيته على تعليمه تاريخ انجلترا ، فكانت تقرأ له وهو لا يزال طفلا صغير كتاب (آرثر الصغير Little Arthur) ذلك الكتاب الذى كان يحكى هذا التاريخ بشكل قصصى مشوق .

---

(١) نشر والده ترجمة حياة « ماكولى » سنة ١٨٧٦ ـ أنظر الترجمة الذاتية لتريفليان . المرجع السابق ص ٦

(٢) المرجع السابق ص ٧

وعندما بلغ السادسة بدأ يدرس تاريخ فرنسا ، فاستطاع بذلك وهو فى هذه السن المبكرة ، أن يتعلم أن هناك بلدا آخر الى جانب بلده ، وكما قال : (بلد له معاركه وأيامه وأمجاده الخاصة به[١]) ومنذ ذلك الحين بدأ (تريفليان) يتعود حفظ التواريخ (الأيام) والأشعار عن ظهر قلب .

٥ ــ الوراثة الاجتماعية :

وللوراثة الاجتماعية أثرها أيضا فى توجيه ميول الطفل واتجاهاته . فان مادة التاريخ مثلا كانت مادة التخصص (لماكولى Macaulay)[٢] ، المؤرخ الانجليزى الكبير الذى كان عما لوالد (تريفليان) ، ولقد كان الصبى شديد الاعجاب والحب لعمه هذا . وكما كان (ماكولى) يكره مادة الحساب ، كذلك ورث (تريفليان) هذا العداء الشديد لهذه المادة منذ حداثته .

٦ ــ بيئته المدرسية :

وعندما التحق بتلك المدرسة الاستقراطية (هارو Harrow) سنة ١٨٨٩ ، كانت السيادة للمناهج الكلاسيكية على غيرها من المواد الدراسية الأخرى . فهل تأثرت ميول الصبى نحو مادته المفضلة ؟

لقد استطاع (تريفليان) أن يبذ أقرانه فى كتابة الشعر اللاتينى ، الى درجة شعر معها جميع من فى المدرسة بأنه سيتخصص فى اللغة اللاتينية فى مستقبل حياته ، على أن هذا لم يؤثر على قرار قداتخذه وميل قد بدأه واتجاه قد بدا واضحا نحو مادة التاريخ . لقد كان دائم التطلع كما يقول : (لكى لا يكون كلاسيكيا بل مؤرخا)[٣] . مرة واحدة تلك التى فكر فيها أن يصبح شاعرا ، ولقد كان تريفليان ينظم الشعر فعلا ، ولكنه لم يفكر قط فى أن يصبح قائد جيش ، أو رجل سياسة ، أو سائق سيارة . لقد كان واثقا من أن مستوى

(١) المرجع السابق : ص ١٢
(٢) المرجع السابق : ص ١٢
(٣) المرجع السابق : ص ٩

تحصيله فى اللغة اللاتينية لم يكن راجعا الى ميل خاص أو لقدرة فذة فى هذه اللغة ، بقدر ماكان راجعا الى الطرق الجيدة التى كان يتبعها المدرس مع تلاميذه على أن هذا لا يغير الحقيقة ، وهو أن جو المدرسة فى (هارو) لم يكن ليشجع على التعمق فى دراسة التاريخ ، بل كان معاديا لدراسة المواد الأخرى فيما عدا المواد الكلاسيكية . غير أن (تريفليان) يمثل لنا نموذجا طيبا لهؤلاء الذين يشعرون بميل عميق نحو شيء ما ، ويصرون على المثابرة للوصول لتحقيق أهدافهم على الرغم من الصعوبات العديدة التى يمكن أن تعترض طريقهم . كذلك تشير قصته بوضوح الى أن ما أثبته علم النفس الحديث من أن تأثير المنزل والوالدين أقوى من تأثير المدرسة أو المدرس بالنسبة لتكوين الاتجاهات والميول[١] .

على أن تزويد مكتبة المدرسة بكتب قيمة أتاح (لتريفليان) فرصة لمداومة قراءاته التاريخية كما يريد . وهناك استمر فى تعليم نفسه بنفسه .

الفرصة الثانية ، اعترضت طريقه فى السنة الأخيرة من حياته الدراسية فى (هارو) ، هناك التقى بمدرسين ملهمين ، وصادف أن كانا يمتازان بميل خاص نحو مادة التاريخ[٢] ، والى هذين يرجع الفضل فى تقدم تريفليان لامتحان الشهادة الثانوية ، وأن يختار التاريخ مادة تخصصه ، كما أتاح له فرصة ليقرأ التاريخ الحديث الذى جذبه للتعمق والتوفر على دراسته .

بدأت المرحلة الثالثة من مراحل تعلمه لمادة التاريخ فى (كمبردج) هناك وجد البيئة الجامعية مهيأة لمتابعة دراساته ، ولتطور ميوله واتجاهاته ، فلم يكن قادرا على أن يستمع الى محاضرات تاريخية ، وأن يدرس بتعمق منهجا منتظما فى هذه المادة فحسب ، بل كان يأخذ دورا هاما فى مناقشات الجماعة بصورة دائمة . مثل

---

(١) Fleming, C. M. The Social Psychology of Education and Guide to its Study, London. Routledge & Kegan Paul Ltd. 1944

أنظر الفصل الثامن من المرجع المذكور ، لاسيما صفحات ٤٢ — ٤٣

(٢) تريفليان — الترجمة بقلمه — المرجع المذكور ص ١٠١ ، هذان المدرسان هما روبرت سمرفيل (Robert Somervel) ، جورج تاونساند (George Townsend) .

هذا الجو الطليق فتح أمامه آفاقا جديدة شجعته على أن يبدى رأيه بحرية ، وأن يستمع الى ملاحظات نقدية وجهته فى طريقه المرسوم ، وهناك أيضا قابل أستاذين فى التاريخ أحدهما (سيلى Seeley[1]) ، وثانيهما (آكتون Acton[2]) أما الأخير فقد ترك أثرا واضحا فى كتابات (تريفليان) ، فى حين أن الأول كان تأثيره عليه ايجابيا وسلبيا فى آن واحد . ويمكن فهم التأثير السلبى لو تذكرنا ، أن الاتجاه العام حوالى نهاية القرن التاسع عشر[3] ، كان نحو تطبيق القواعد العلمية على كتابة التاريخ . ولهذا لم يتورع (سيلى) عن وصف المؤرخين المقربين الى قلب (تريفليان) — ماكولى وكارليل — بأنهما مدعيين وليسا بمؤرخين — وفى نفس الوقت ، كان يؤكد أن التاريخ علم ليست له علاقة بالأدب[4] . أما عن التأثير الايجابى ، فلقد ظهر فى تغير اتجاه (تريفليان) نحو كتابة التاريخ ، لقد تحقق من أن المؤرخ لابد أن يعتمد على الحقائق عندما يبنى قصته .

وفى نفس الوقت ظل يؤكد أن التاريخ فن من الفنون ، وليس كما يقول (سيلى) انه مجرد علم من العلوم . فما يتصف به رجل العلم من حياد جاف لا محل له بل لا يمكن أن يحتمل فى مقام المؤرخ المعنى بشئون النفوس الحساسة ومن كان فاقد الانفعال والحماس فقلما يؤمن بانفعالات غيره ، ثم هو لا يمكنه

---

(١) جون سيلى (John Seeley) سنة ١٨٣٤ — ١٨٩٥ ، مؤرخ انجليزى كان يرى أن البحث التاريخى لا بد وأن يقتصر على ميدان السياسة ولا بد من التركيز على الأوراق الرسمية لاستقاء المعلومات التاريخية .

(٢) لورد آكتون (Lord Acton) سنة ١٨٣٤ — ١٩٠٢ ، ولد ونشأ وتعلم فى القارة الأوروبية ، ثم أصبح أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كمبردج فى أواخر حياته . يرى أن يحيط المورخ إلى أبعد مدى بشئون السياسة ، وأن يعى بحركات الأفكار فهى علة الحوادث العامة — أنظر هرنشو (F. J. G. Hearnshaw) ترجمة عبد الحميد العبادى ، علم التاريخ — لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٤ — الطبعة الثانية ص : ٩٣

(٣) تريفليان — الترجمة الذاتية — المرجع المذكور ، الفصل الأول .

(٤) تريفليان — الترجمة الذاتية — المرجع المذكور ، ص : ١٧

أن يدرك هذه الانفعالات أبدا[١] ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مشكلة تريفليان أن يؤسس العلاقة بين التاريخ والعلوم ، وبينه وبين الأدب .

ولقد نجح فى حل هذه المشكلة الى درجة أن خلق وراءه مدرسة من الكتاب يحذون حذوه فى أسلوبه فى الكتابة[٢] ، أى أن يعتمدوا على الحقائق المجردة ويبرزوها فى أسلوب أدبى .

٧ - المستوى الاجتماعى - الاقتصادى :

لاشك أن مستوى المعيشة الذى تمتع به (تريفليان) فى منزله منذ نشأته الأولى قد أتاح له الوقت والمال والفرصة لمتابعة ميوله .

والواقع أنه استطاع أن يزور مع ذويه المناطق الأوروبية ذات القيمة التاريخية . وهناك استطاع أن يستوحى الالهام ليكتب الكثير من كتبه ، فعندما ذهب الى فرنسا مثلا أحس بسرور طاغ عندما شاهد عن كثب مسرح الثورة الفرنسية .

والفضل فى هذا يرجع الى كتاب « تاريخ الثورة الفرنسية تأليف كارليل » فأصبح مرشدا أمينا (لتريفليان) فى تجواله ، كما يرجع أيضا الى والده الذى كان يقوم منه مقام الدليل .

أما فى ايطاليا ، فلقد عثر على مصادر تاريخية عديدة أفادته فى اخراج كتبه التاريخية فيما بعد . هذه الزيارات ساعدته على تغذية خياله وجعله ينبض بالحياة

وهكذا استطاع أن يعيش مع هؤلاء الذين عاشوا فى الماضى ويتحدث اليهم .

وكما أعطى صورة يوضح بها مدى تأثره بآثار الماضى الغابرة بقوله :

« ان مجرد النظر الى قلعة مهدمة كان يفعل بنفسى ما تفعله الفكرة الملحة والعاطفة الجياشة التى تحتل كيانى[٣] » .

---

(١) هرنشو - المرجع المذكور - ص : ٣

(٢) تريفليان - الترجمة الذاتية - المرجع المذكور ص : ١٧

(٣) تريفليان - المرجع السابق ص : ٢٠

٨ ـ انتاجه :

لابد لنا من استعراض انتاج (تريفليان) فى التاريخ حتى بلوغه الثالثة والعشرين ، لأن مثل هذا العرض يتيح لنا أن نتبين كيف أثرت ميوله فى انتاجه عندما بلغ العشرين من عمره[١] سنة ١٨٩٦ .

كان أحد خمسة استطاعوا أن ينالوا مرتبة الشرف الأولى فى التاريخ فى درجة الليسانس ، ووصل الى هذه المرتبة على الرغم من اعتلال صحته التى أنهكها بالانكباب على الدرس والمطالعة الدائمة الدائبة . وبعد عامين من تخرجه ، أى فى سنة ١٨٩٨ ولما يتجاوز ربيعه الثانى والعشرين [٢] نراه يضع رسالته التى صار بها زميلا بجامعة كمبردج فى التاريخ الوسيط . هذا على الرغم من حرصه على أن يكون ميدانه هو التاريخ الحديث ، الأمر الذى يلقى ضوءا على تشعب ميوله وتعدد آفاق معلوماته فى هذا الميدان .

وقد جذب كتابه هذا (انجلترا فى عصر[٣] « ويكلف ») اهتمام الرأى العام لمدى نصف قرن من الزمان[٤] ، ثم نرى بعد ذلك أن ميله للتاريخ الحديث يتغلب عليه فيلفته الى التوفر على التأليف فيه ، حتى أن أحد الناشرين[٥] قد تولى نشر ١٦ ستة عشر كتابا بقلمه فى هذا الميدان .

ثانيا ـ (جون ستيوارت مل) (٢٠ مايو سنة ١٨٠٦ ـ ٨ مايو ١٨٧٣) :

تعطينا قصة (مل) صورة تخالف صورة (تريفليان) ، كما تبين بوضوح كيف أن القدرة العقلية العامة تسير جنبا الى جنب مع تطور الميل نحو التاريخ ، كما يظهر لنا تأثير المدرس المخلص فى تكييف اتجاهات تلميذه العلمية وما للتلميذ المجد من أثر فى مستوى تحصيله الدراسى . فما هى العوامل التى أثرت فى تطوير ميول (مل) وانتاجه ؟!

---

(١) تريفليان ـ المرجع السابق ص : ٢

(٢) المرجع السابق ـ ص : ٢٠

(٣) England in the Age of Wycliffe

(٤) تريفليان ـ المرجع السابق ص : ٢٠

(٥) الناشر هو لونجمان Longmans ـ أنظر المرجع السابق : ص ٢٤

١ ــ مستوى القدرة العقلية العامة :

قدر مستوى ذكاء (مل) بنحو ٢٠٠° حتى بلوغه سن السابعة عشرة ثم ينسبه ١٧٠° بعد وصوله هذه السن ، أما متوسط نسبة القدرة العقلية العامة المقدرة على أساس انتاجه فهى ١٩٠°[١].

٢ ــ الوراثة الاجتماعية :

كان جد (مل) لأبيه صانع أحذية ، ووالده هو (چيمس ستيوارت مل James Stuart Mill) الفيلسوف النفعى ، الذى وضع تاريخا للهند الى جانب كتاباته الفلسفية الأخرى[٢] ، وقد حرص الوالد على القيام بالعناية بتربية ابنه بنفسه .

والواقع أنه يمكن أن نعتبر أن من أهم العوامل التى أثرت فى تربية (مل) ارتباطه بأبيه ، ذلك الذى اشتهر بالجد والاجتهاد مع الحزم والصلابة .

٣ ــ تربيته :

(أ) قراءاته :

حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره ظل (مل) يتلقى تعليمه بالمنزل ، وقد بدأ يتعلم الاغريقية فى الثالثة من عمره ، ومنذ الثالثة حتى التاسعة ، استطاع أن يقرأ بتوجيه والده ، كتبا تاريخية لا تحصى ، هذا الى جانب قراءاته فى النواحى الثقافية الأخرى كالفلسفة . فمثلا قرأ أفلاطون وهو فى السابعة[٣] ، وكان منهجه التاريخى غنيا منذ البداية ، فعلى الرغم من أن هدف والده كان ينحصر فى تزويده منذ بلوغه الثالثة من العمر بالمراجع الكلاسيكية ، تلك التى تحكى قصة صراع الانسان من أجل التغلب على الصعوبات العديدة ، والظروف غير العادية ، فان كتبه الشائقة كانت تحكى سير الرجال العاملين من أبطال التاريخ ،

---

(١) Cox « كوكس » ، المرجع المذكور صفحات ٧٠٧ ــ ٧١١ ، صفحات ١٥٥ ــ ١٦٠

(٢) المرجع السابق ص ٧٠٧

(٣) المرجع السابق ص : ٧٠٧

كما عززت قراءاته بقدر كبير من المادة التاريخية التى تفسر النظريات التى تتصل بالحضارة وبالحكومة وبالأخلاق[١] .

لقد أخذ الطفل يقرأ عن الحكومة الانجليزية وحركة الاصلاح الدينى وغيرها من الموضوعات ذات الطابع الجدى ، ومنذ الثامنة حتى الثانية عشرة ، استمر التاريخ ولا سيما القديم منه أحب مادة اليه[٢] ، ولهذا فانه الى جانب قراءته لتاريخ الرومان والاغريق ؛ فانه أكب على قراءة تاريخ العالم القديم ، كما درس نظام الحكم الرومانى وقوانينه ومشكلاته التشريعية ، وبين الثالثة عشرة والرابعة عشرة عكف على دراسة كاملة للتاريخ الاقتصادى — السياسى قراءة واعية ، فى حين أنه أمضى السادسة عشرة والسابعة عشرة فى قراءة الفلسفة والتاريخ وعلم النفس والأساليب الأدبية[٣] .

(ب) طرق دراسته :

١ — على الرغم من أن طريقة التعلم التى كانت سائدة فى زمنه كانت مجرد حشد الحافظة بالمعلومات ، فان طريقة (مل) قد شذت عن هذه ، اذ صار الفهم والهضم مع الحفظ[٤] جنبا الى جنب .

٢ — وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره ، درس علم المنطق ، الأمر الذى مكنه من اكتشاف أصول المعانى للكلمات ، ويمكن أن نستنتج من هذا أن نظرية انتقال أثر التدريب قد طبقت هنا بمعناها الحديث .

وقد كان يظن حينذاك ، أن مثل هذه الطريقة لو استخدمت استخداما صحيحا لاستطاعت أن تكون مفكرين جادين[٥] .

---

(١) (مل) الترجمة الذاتية — المرجع المذكور ص ٧

(٢) (مل) المرجع السابق ص ١٠

(٣) (كوكس) Cox : المرجع المذكور ص ١٥٨

(٤) كوكس : المرجع السابق ص ٧٠٨

(٥) (مل) الترجمة الذاتية . المرجع المذكور ص ١٦

٣ — عند ما بلغ الثالثة من عمره ، درج على أخـذ مذكرات يلخص فيها بأسلوبه وبكلماته العدد الوفير من الكتب التاريخية التى قرأها[١].

٤ — فى حين أن مناقشته الدائمة مع والده ، ومع أصدقاء والده — وكانوا من أكبر مفكرى القرن التاسع عشر — كانت تتم على قدم المساواة معهم على الرغم من فارق السن بينه وبينهم .

وفى أثناء نزهته اليومية الصباحية ، درج على أن يقدم لأبيه تقريرا وافيا عما درسه فى اليوم السابق . هذا التقرير كان يدبج بأسلوب (مل) الخاص .

٥ — كما كان يشجع الوالد طفله على أن يكتب تمرينات درج أن يسميها (كتابات تاريخية) [٢] . وقد شاء والده أن يترك طفله حرا يكتب هـذه كما يحلو له ، ذلك لأن الوالد لم يحاول يوما أن يتفحص ما كتبه ، مثل هـذه الكتابات — كما يقول هو نفسه — برهان ساطع على ميله القوى نحو التاريخ.

٦ — كما أعطيت له أشعار شكسبير ليدرسها ، وكان يلذ بقراءة المسرحيات التاريخية .

٧ — وكان يطلب اليه أن ينقـد كل ما قرأه ، ويشجع على تكوين رأى مستقل ، ومهما يكن من هدف وضعه الأب نصب عينيه لتحقيقه بالنسبة لابنه ، فانه لم يجد سبيلا على أن يرغمـه على القراءة أو التفكير . لقـد كان (مل) الصغير دائم التعطش الى المعرفة .

٨ — ولقد تعلم منذ البداية البحث عن الحقيقة وألا يقبل أقوال المؤرخين وآراءهم دون الاقتناع بصحتها ، وهكذا كانت القاعدة التى يرتكز عليها هى تجنب التحيز ، حتى على حساب الشعور الوطنى [٣] ، بمعنى آخر أنه عندما كان

---

(١) أنظر المرجع السابق ، مثبت به أسماء هذه الكتب — ص ٦

(٢) المرجع السابق : ص ٦١

(٣) ترجمة مل الذاتية . المرجع المذكور — أنظر اتجاهه حيال حرب الاستقلال الأمريكية ص : ٦٠٧

(مل) صـــغيرا اتبعت معه طرق التعلم والبحث التى يصر مؤرخـــو اليوم على تعليمها للمتخصصين فى التاريخ .

٩ — اعتمد على المصادر الأولى والثانية فى قراءاته وكتاباته التاريخية .

الانتاج التاريخى :

(ا) عندما بلغ الخامسة استطاع (مل) أن يصمد لمناقشة دارت بينه وبين (ليدى سبنسر Lady Spencer) عن المقارنة بين مميزات (مالبره Malborough) و (ولنجتون Wellington) وكانت المناقشـــة طـــويلة وجديةوتقدر نسبة ذكاء (مل) لصموده فىهذا الموقف بـ ٢٠٠ درجة[١] .

(ب) وعندما بلغ منتصف السابعة كتب تاريخ روما[٢] . وقد وصف بأنه انتاج يدعو للدهشة من طفل صغير جدا[٣].

(جـ) وقبل أن يصل السابعة من عمره أظهر ميلا وقدرة خارقة على تناول المـــادة التاريخيـــة بذكاء وفطنة نادرتين ، وذلك باعـــداد الملخصات والملاحظات النقدية . مثل هذا التحصيل قدر على ضوئه متوسط ذكاء مل بـ + ٢٠٠ درجة[٤] .

(د) وعندما بلغ الحادية عشر ، عهـــد اليه والده بتصحيح كتابه « تاريخ الهند » قبل طبعه[٥] ، مما يدل على وثوقه من مقدرته وكفاءته .

(هـ) وعندما ناهز الثانيـــة عشرة من عمره كتب « تاريخ حكومة روما » نزولا على رغبة شخصية . قدر هذا الانتاج بأنه يناسب مستوى طالب فى المرحلة الجامعية الأولى ، ومما يزيدنا اعجابا بهذا العمـــل هو أن

---

(١) (كوكس) Cox . المرجع المذكور ص : ١٥٦

(٢) (مل) ـ الترجمة الذاتية ـ المرجع المذكور ص : ١١

(٣) كوكس : المرجع المذكور ص : ٢٠٩

(٤) المرجع السابق ص : ١٥٦

(٥) كوكس : المرجع السابق ص ٢٠٩

(مل) استمد مادته من مصادر لاتينية ، والكتاب يتضمن مناقشة النقاط الدستورية ، ويتضمن تحقيقا للقوانين الزراعيـة ودفاعا عن الحزب الديموقراطى الرومانى[١] .

(و) وبين التاسعة والثالثة عشر حاول (مل) كتابة ملحمة استمد الهامها من ملحمة (هومر) بقلم (الكسندر بوب Alexander Pope) . ولقد نجح (مل) فى اتمام كتاب كان اكمالا للالياذة ، الأمر الذى يدل بوضوح على انتاجه الغزير فى هذا الميدان .

القرائن الدالة على قدرات فذة وميل متصل لمادة التاريخ

قد يساعد كثيرا على تقدير مظاهر القدرات والميول المختلفة لدى (مل) ، اذا ما حللنا أول فقرة فى كتابه : تاريخ روما ذلك الذى كتبه ، كما نوهنا سابقا وهو فى منتصف السابعة من عمره ، وتجرى الفقرة على النحو الآتى[٢] :

أولا — حكومة ألبان Alban — يقول دايوسيس الهاليكارناسى Dionysius of Halicarnassus .

الغزو الرومانى لايطاليا :

نحن لا نعرف شيئا عن تاريخ روما حتى الغزو الصقلى ، فقبل هذا الوقت لم تتح المدينة للغزاة أية فرصة تفتح أمامهم موجاما ، وبعد أن رد الصقليون على أعقابهم ، قام ملوك (أيبريا Iberia) بحكم روما لسنوات عديدة ، وحدث أن جاء (آينياس Aeneas) بن (ڤينوس Venus) و(أنيكسيس Anchises) الى ايطاليا فى عهد (لاتينوس Latinus) وأسس مملكة هناك تدعى ألبانيا Albania ثم تولى الحكم بعد (لاتينوس) ، واشترك فى الحروب الايطالية . غير أن شعب (الروتولى Rutuli) ذلك الشعب الذى كان يعيش قرب البحر وتمتد أملاكه على الخط من (نوميسيوس Numicius) حتى (لافينيوم Lavinium) وقف ضـده

---

(١) كوكس : المرجع السابق ص ١٥٧

(٢) كوكس : المرجع السابق ص ٧٩٥

غير أن ملكهم (تورنوس Turnus) قد هزم وقتل بيد (آينياس) ، ذلك الذى قتل بعده بوقت قصير واستمرت الحرب ولاسيما ضد شعب (الروتولى) حتى عهد (روميلوس Romulus) ، أول ملك من ملوك روما ، ذلك الذى قام بتشييد روما .

ويمكن ابداء الملاحظات الآتية على هذه الفقرة :

١ — ادراك (مل للأهمية التى تلعبها الوثائق التاريخية فى كتابة التاريخ ، ولقد حرص على ذكر المصدر الذى استقى منه معلوماته التاريخية وهو (دايونيس الهاليكارناسى) ، كذلك يتضح أن (مل) فى كتابه الأول لم يستق معلوماته من الكتب المدرسية بل اعتمد أساسا على المصادر الأصلية .

٢ — وأن الكلمات مثل : أولا ، وقبل ، وبعد ، وسنوات عديدة وغيرها تشير الى ادراك (مل) لأهمية عامل الزمن فى فهم وعرض التاريخ ، فهذا المظهر يعطى للتاريخ احدى صفاته المميزة ألا وهى التعاقب الزمنى .

٣ — ثم أن طريقة تنظيمه للحوادث بشكل يجعل الحادثة الأولى تلى الحادثة الثانية تشير الى اهتمام (مل) لا بالحرص على التتابع التاريخى للأحداث فحسب بل على ادراكه أهمية العلاقات السببية فى بناء القصة التاريخية أيضا ، أى أن كل حادثة تالية تترتب على حادثة سابقة . ويعتبر هذا التنظيم أحد خصائص الكتابة التاريخية .

٤ — كذلك يلاحظ اهتمام (مل) بالدور الذى يلعبه المكان فى عرض المادة التاريخية وابرازه كمسرح يلعب عليه الشخصيات التاريخية دورهم ، وبالتالى ادراك أهمية العلاقة بين الزمان والمكان ، ، وبين البيئة الجغرافية والأحداث التاريخية . فشعوب الشواطىء مثلا قد عرفت عادة بوقوفها ضد الغزاة تدافع عن حرمتها .

٥ — والفقرة السابقة تشير بوضوح الى ادراك (مل) للدور الذى تلعبه الوحدة الاجتماعية (Social Unit) فى تكوين القصة التاريخية . فمثلا هناك

شعب (الروتولى) ذلك الشعب الذى يقطن قرب شاطىء البحر يعتبر وحدة اجتماعية أبرزه (مل) ابرازا قويا ، كما حرص على وصف العلاقات الاجتماعية المختلفة التى تربط هذا الشعب بملوك روما المختلفين .

٦ — وفى نفس الوقت أدرك (مل) أهمية الدور الذى يلعبه الرجل العظيم أو البطل الفذ فى الأحداث التاريخية وان أسماء الأعلام (تورنوس وآينياس ورومبلوس) مثلا تبرهن على تقديره لهذا العامل الهام فى الأحداث التاريخية .

٧ — كذلك نرى بوضوح اهتمام (مل) بذكر الأحداث البارزة فى كتابة القصة التاريخية ، فهناك مثلا : غزو الصقليين لايطاليا ، وهناك تأسيس (روميلوس) لروما ، وهناك الحروب المختلفة ، كل هذا وغيره يؤكد فهم (مل) للدور الذى تلعبه الحوادث الحاسمة فى تاريخ شعب من الشعوب ، وكثير من المؤرخين يؤكد ما لهذه الحوادث من أثر كبير فى تغيير دفة التاريخ .

٨ — حرص (مل) على أن يبرز ويركز فى فقرة واحدة أفكارا عديدة ، مما يدل على ادراكه لضرورة اختيار الحقائق الأكثر أهمية ، واغفال الحقائق الأقل أهمية . كما حاول الانعتاق من الأسلوب الأدبى عند عرضه للمادة التاريخية ، الأمر الذى يدل على تأثره بالنزعة الموضوعية العلمية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر .

٩ — هناك من الدلائل ما يشير الى فهم (مل) لأهمية بداية ونهاية عهد من العهود ، الأمر الذى يشير بوضوح الى فهمه لأهمية فكرة الاستمرار والتطور الى جانب ادراكه لفكرة السبب والنتيجة .

١٠ — لقد قدرت المصادر [1] نسبة مستوى القدرة العقلية العامة (لمل) بـ ٢٠٠ درجة ، وذلك على أساس ادراكه لمعانى الاصطلاحات التاريخية مثل : حكومة ، غزو ، هزيمة ، طرد ، حكم ، الوقوف ضد ، اجتياح ، وكلها قد

---

[1] كوكس : Cox — المرجع المذكور ص ٢٠٠

استخدمها استخداما واعيا . كذلك تتضح لنـا دقته فى عرض مادته التاريخية مثلا :

The country bad not been entered by any foreign invader.

(لم تتح المدينة للغزاة أية فرصة تفتح أمامهم موجاما)

established a kingdom. (أسس ملكا)

engaged in wars. (استغرق الحروب)

succeeded in the government, (طوى الحكومة وجعلها فى ركابه)

ولقد قدر العمر العقلى (لمل) على أساس استخدام هـذه الاصطلاحات والعبارات التاريخية بمستوى ذكاء مراهق فاق الخامسة عشرة من عمره [١] ، بينما قدرته بعض المصادر الأخرى بمستوى ذكاء صبى فاق الثانية عشرة من عمره[٢].

هـذا التقريران المضطربان بين الثانية عشرة والسادسـة عشرة يجعلاننا لا نستبعد أن يصل تلاميذ المرحلة الاعدادية والمرحلة الثانوية الى نفس المستوى أو ما يقرب منه ، اذا ما أحيطوا بمثل الظروف التى أحيط بها (مل) منذ طفولته الباكرة ، معنى هذا أنه لابد من أن نضع فى حسابنا دائما أثر العوامل المختلفة التى تعوق تلميذ هاتين المرحلتين عن الوصـول الى المستوى الذى وصل اليه (مل) وهو لم يعد طور الطفولة المبكرة .

ثالثا ـ المؤرخ ادوار جيبون (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤) Edward Gibbon :

يرجع اختيارى للمؤرخ جيبـون الى أنه يبين صـورة مختلفة عن هاتين الصـورتين اللتين عرضتا لكل من (تريقليان ومل) . فعلى عكسهما لم يظهر جيبون ميلا نحو التاريخ أو حماسا لحفظه الا عندما بلغ العاشرة من عمره ، ربما كان يرجع هذا الى ظروفه المنزلية ، والى اعتلال صحته ، كما لم يحظ باهتمام والده بتربيته كما حظى زميلاه .

---

(١) Cattell, Roymond B. Your Mind and Mine, London, George G. Harrap & Co. Ltd. 1934 - p. 40.

(٢) كوكس : المرجع المذكور ص ١٥٦

تقصى تطور ميل جيبون نحو التاريخ

١ — عندما بالغ التاسعة ، أدخل مدرسة خاصة Public school [١] تلقى فيها أول ماتلقى دراسة أشعار (هومر ترجمة بوب) [٢] ، ومنها كانت انفعالاته الأولى فى ناحيتى الأدب والتاريخ معا . ولعل انطباعات الأحداث التاريخية التى تضمنتها أشعار هومر مثل حروب طروادة وما دار بين أبطالها من مشاحنات ومعارك تركت فى ذهن الغلام أثرا موشى بأمشاج من الحقيقة والخيال الأمر الذى حشد نفسه بشتى الانفعالات التى يمتزج فيها الخوف بالحب بالشفقة [٣] .

٢ — وفى الثانية عشرة ، كان قد تمكن من استيعاب قدر كبير من الشعر الانجليزى والقصص ذات الطابع التاريخى والمغامرات والرحلات [٤] ، وان لم تتح له ظروفه أن يسمو الى قراءة المصادر الأصلية على النحو الذى تمكن منه (مل) وذلك لجهله باللغة الاغريقية ، وعلى الرغم من هذا كله نرى جيبون يعتبر السنة التى أمضاها فى المدرسة كانت ذات أثر أحسه بكل قواه فى تقدمه الفكرى لقد ظل يلتهم كل ما تقع يده عليه من تاريخ قديم أو حديث غربى أم شرقى ، ويجد فى قراءته لذة [٥] . وفى الثالثة عشرة استغرقه الميل للتاريخ والانكباب على أحداثه استغراقا كاملا [٦] .

٣ — وفى الفترة التى تقع بين سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، وكان فيها فريسة مرض كان يحس بمرارة حرمانه من البيئة الثقافية التى تألفها روحه . واستطاع بتأملاته أن ينفذ الى العهود السحيقة ويستنطق أحداثها ، حتى تمكن

---

(١) (المدارس العامة) Public Schools : هى مدارس خاصة ، يلتحق بها التلميذ الانجليزى ، نظير دفع رسوم باهظة ، لا تحتملها ميزانية الرجل العادى .

(٢) Alexander Pope

(٣) جيبون (Gibbon) : المرجع المذكور — الترجمة الذاتية ص ٢٧

(٤) المرجع السابق : صفحات ٢٧ — ٢٩

(٥) المرجع السابق : صفحات ٣٤ — ٣٥

(٦) كوكس (Cox) : المرجع المذكور ص ٥٢٨

من أن يجلو مرائيها بصورة تكاد تحس . وقد لعبت الصدفة فى اتجاهه هذا دورا يمكن تلخيصه فى عثوره على كتاب يتناول العصر البيزنطى ، وحياة النبى العربى وتاريخ الجزيرة العربية ، فى مكتبة أحد أصدقاء والده ، وقد استطاع قبل أن يتجاوز السادسة عشرة أن يلم الماما كاملا بما كتب عن تاريخ العرب والفرس والمغول والترك .

ونرى أن انطباع نفسه بتاريخ الشرق جعله يترك بصمات منه على انتاجه فى المستقبل .

٤ — ومما يؤسف عليه أن الظروف لم تيسر له ما يتمكن به من تنظيم معلوماته ، فهو مثلا عندما التحق بجامعة اكسفورد ، لم يجد البيئة الملائمة التى تساعده على تحقيق هذا الغرض . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فانه لو كان قد صادف المدرس الذى يتلقاه بفهم لقدراته الذهنية ولمدى استعداده الصالح للمعرفة ، مثل ما حدث مع تريفليان لكان قد اتجه اتجاها أكثر توفيقا ، وكان لأثر فقر البيئة الجامعية من الوثائق التى تعينه على استكمال دراسته وتنظيمها ، انصرافه عن دراسة اللغة العربية التى كان يصبو الى الالمام بها ومن عدم تمكنه من التقدم فى دراسة تاريخ الشرق .

وعلى الرغم من الظروف السيئة التى أحاطت به من كل جانب والتى جعلته يرتمى فى أحضان الكسل لمدة ثلاثة أعوام لم يفقد حرارة اهتمامه بالتاريخ ومضيه فى دراسته على طريقته الخاصة تلك التى لا تعترف بنظام ولا تتخذ أسلوبا معينا والتى تتجه الى دراسة التاريخ الأجنبى الذى لا يتصل بوطنه[1] .

مظاهر ميول وقدرات جيبون التاريخية

١ — فى الخامسة عشرة من عمره ، وعلى الرغم من افتقاره للأسس التربوية الصحيحة وعدم تعوده على التفكير المنطقى المنظم ، وافتقاره الى الأسلوب

---

(١) جيبون ـ الترجمة الذاتية المرجع المذكور ص ٤٧

الصحيح الذى يخلو من الأخطاء الهجائية والنحوية وضع كتاب (عصر سيزوستريس The Age of Sesostris ، ويرمى الى تقصى حكم هذا الملك فى آسيا ، بيد أنه لم يتم هذا الكتاب [١] .

٢ — وفى الحادية والعشرين ، كان جيبون قد أتم كتابه الأول ، وهو عبارة عن مقال وضعه باللغة الفرنسية عنوانه (دراسات فى الأدب) .

وعلى الرغم من أن أسلوبها كان يوصف بأنه أسلوب عادى ، الا أنها نادت بضرورة اعطاء التاريخ والسياسة مكانهما بين العلوم الأولى . وكانت دعوته أقوى من أية دعوى تماثلها فى عصره [٢] .

٣ — وعندما كان يتم تعليمه بسويسرا ، وعلى الرغم من انهماكه فى دراسة بعيدة الصلة عن التاريخ الا أننا نلاحظ استمرار ميله لقرائته ولاسيما ما يتصل منها بالعصور الحديثة .

٤ — ولقد كان جيبون أول مؤرخ فى بريطانيا ، يحرر نفسه من الطريقة التى أدخلها مونتسكيو ، تلك التى كانت تعتمد فى تفسيرها للحوادث التاريخية على العوامل البشرية ، وكان جيبون يحس تماما بأهمية العوامل الثقافية لزمان ومكان معينين الى جانب تأثير المناخ فى تطوير الأحداث التاريخية .

٥ — ولقد اتيحت له دراسة المنطق وأساليب التفكير المنظم ، الأمر الذى وضح أثره فى اتسامه بروح النقد الذى كان يفتقر اليها قبل هذه الدراسة ، فتحول من مجرد قارىء عادى الى قارىء يتذوق وينقد ويستوعب على أسس منطقية سليمة سديدة .

٦ — وكان من أثر هذه الدراسة وثمرتها أن توجه الى البحث عن المصادر الأصلية ، كما علمته كيف يستعين بالخرائط وبالقوائم الزمنية ، وجعلها اطارا

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨

(٢) Young, G. M. Gibbon, Rupert Hart - Davis, London 1932 Edition 1948 p. 80 (ص ٨٠)

ربط الزمان بالمكان . وكان يعتقد أن هذه الطريقة لا يمكن بحال أن يستغنى عنها فى دراسة التاريخ . وقد تفرد جيبون بذاكرة ذات قدرة خاصة على استيعاب التواريخ الزمنية (الأيام) والتوزيع الجغرافى والتاريخى للأحداث[١].

٧ — أدرك جيبون أهمية المصادر التاريخية من أجل البحث عن الحقيقة — كما استطاع أن يقدر تماما قيمة الأدلة التى تستقى من مصادر معاصرة موثوق فى عدم تحيزها — ولقد تبين أن الكثير من هذه البراهين ، يأتى من المصادر المعاصرة التى لم يكن دافعها للكتابة تحقيق غرض ما[٢].

ومن أجل أن نبرهن على صدق هذا القول ، نسوق حادثة اعتناق جيبون للمذهب الكاثوليكى ، وهو مازال طالبا فى سن السادسة عشرة بجامعة أكسفورد وذلك بعد أن اقتنع بما كتبه الدكتور (ميدلتون Middleton) ، الأمر الذى يشير بوضوح الى معنى تقديره للحقائق التاريخية والأسانيد المقنعة ، وان صدرت من يخالف عقيدته ، على أنه اذا كانت هذه الحادثة تكشف عن تحمسه وتمسكه برأيه ومجاهرته به ، على الرغم من كل ما يكتنفه من صعوبات ، الا أنها كانت تشير أيضا الى أنه لم يكن بعد ناضجا النضوج الفكرى المطلوب ، ذلك الذى يحتم عليه أن يرى المسألة من أوجهها جميعا ، والا بد من أن يستمع الرأى المعارض قبل أن يجنح لرأى ما[٣] بدليل ارتداده الى مذهبه الأصلى .

٨ — وهو يشبه (تريفليان) فى مدى تأثره بالزيارات التاريخية . ان العمل الذى خلد اسمه كان وليد الهام زيارته (للكابيتول Capitol) بروما سنة ١٧٦٤[٤] هذا الحادث يذكرنا بملاحظة أبداها (ستانلى هول Stanly Hall[٥]) .

---

(١) يونج (Young) المرجع المذكور ص ١٦ ، أيضاً جيبون ، الترجمة الذاتية ، المرجع المذكور ص ٣٦

(٢) يونج (Young) ، المرجع المذكور ، ص ١٦

(٣) جيبون ـ الترجمة الذاتية ـ المرجع المذكور صفحات : ٥٠ ـ ٥٣

(٤) يونج ، المرجع المذكور ص : ٦٥

(٥) Hall, G. Stanley : Educational Problems, Pedagogy of History, New York and London, D. Appleton & Co. 1911 - Vol. II pp. 279 - 280.

عن تلميذ المرحلة الأولى الذى يصادف وجوده فى مكان أثرى كروما أو أثينا ، هناك حيث تحيط به الآثار القديمة من كل جانب ، فلابد من أن تنجذب ميوله نحو الماضى ، ونحو دراسة التاريخ .

هذا على الرغم من محاولة مدرسية الذين يعتنقون المبدأ القائل بأن أفضل طريقة لتدريس التاريخ هى العودة بالصغار للتاريخ المعاصر ، لكيلا يتوهموا أن ما مضى لا يمكن أن يعود ولن نستطيع أن نحظى بخير منه ، الأمر الذى يكون له رد فعل ينطوى على شعور بالخيبة ويوحى باليأس .

الخلاصة : ان دراسة جيبون بينت كيف أن الميل نحو التاريخ يمكن أن يستمر ، على الرغم من الظروف غير المواتية لنمو مثل هذا الميل ، بل من الممكن خلقه وتعهده بالرعاية المستمرة ، ذلك أنه على الرغم من أن جيبون لم يرزق الوالد المتحمس لدفعه ولتربيته كماكان الحال مع (مل) أو يصادف المدرس الملهم كما كان الحال مع (تريفليان) فلقد استمر ميله فى الاتجاه الصحيح . على أن تأخر ظهور انتاجه يدل دلالة واضحة على ما للظروف من تأثير لا يمكن اغفاله ، الأمر الذى كان ينحسر عن مضاعفات أفدح فى شخصية غير شخصية جيبون الذى امتاز بقدرة علم التعلم[1] ، وبمقدرة عقلية ممتازة ويأخذ نفسه بعادات طيبة لاستيعاب ما قرأه .

ملاحظات ختامية

يجب أن نتذكر ما سبق أن لفتنا اليه الأنظار من أن النتائج التى يمكن استخلاصها من التحليل السابق للحالات الثلاث هى نتائج لم تصل بعد الى حد الثقة المطلقة . أى لابد من أن ننظر الى هذه النتائج بشىء غير قليل من التحفظ، لاسيما اذا ما تذكرنا ما تعانيه طريقة السير والتراجم من ضعف أشرنا اليه فى صدر هذا البحث ، كذلك لابد من أن نأخذ فى اعتبارنا الظروف التى أحيط بها من طبقنا عليهم طريقة (دراسة الحالات) لتحليل ميولهم نحو التاريخ .

---

(١) قدرت (كوكس) . المرجع المذكور ، ص ٧٨١ — نسبة القدرة العقلية العامة لجيبون ب ١٤٥° عند ما كان صغيراً حتى بلغ السابعة عشرة . ثم ب ١٥٥° بعد هذه السن .

هذه النتائج هى :

اذا ما رجعنا الى المشكلة الرئيسية التى أثرناها فى صدر هذا البحث وهى : هل تتفق مع[١] راوزى على تقسيمه لعملية نمو الميل نحو التاريخ الى مرحلتين ؟؟ مرحلة السرد ومرحلة الحقائق أو المرحلة العلمية . هذا التقسيم فيه قدر كبير من التعسف ، ذلك لأن عملية نمو الميول ، شأنها كشأن أية عملية أخرى تتصل بتطور أو بنمو شيء مالا يمكن أن تعسد فى تحديدها بأن نجعل بين مراحلها فواصل متكلفة .

فعملية النمو فيها استمرار . هذا الاعتراض لا يمنع على الاطلاق اعترافنا بأن ميول بعض الأفراد نحو التاريخ يمكن أن تبدأ من ميلهم لسماع القصص السردية أو من قراءتهم لكتب شائقة مثل كتاب (آرثر الصغير Little Arthur) .

والمؤرخ تريفليان يمثل هذا الفريق خير تمثيل ، وأن هناك من ينشأ ميله نحو التاريخ من قراءة الحقائق التاريخية قراءة واعية ترمى الى فهم مدلول هذه الحقائق ، وخير من يمثل هذا الفريق (مل) ، على أن الأخير لم يتفرد بهذا الاتجاه (فجون هافت) John Havet[٢] ، ذلك المؤرخ الفرنسى ، الذى أضاف الى شهرته كمؤرخ صفة المؤرخ الناقد ، كان يرى فى مراحل دراسته قبل الجامعية أن التاريخ مادة مملة فى المدرسة ، ذلك لأنها كانت المادة الوحيدة التى لم تتحد قدراته العقلية ، فلم يطلب اليه أن يعمل فكره فيها أو يقوم بتقصى صحة ما تقوم عليه . الأمر الذى يشير الى أن عزوف (هافت) عن الاقبال على دراسة التاريخ لا يرجع الى طبيعته ، بل على الطريقة السردية التى كان يدرس بها حينذاك ، وهى نفس الطريقة التى اجتذبت (تريفليان) والتى أثنى عليها (راوزى) ثناء طيبا[٣] .

من هذا يتضح بجلاء أن عقلية (مل وهافت) الناقدة كانت فى طبيعتها

---

(١) أنظر ص ١١٧ من هذه الحولية .

(٢) Langlois ch. v and Seignobus ch. Introduction to the Study of History Translated by G. G. Berry, London, Duckworah & Co. New York - Henry Holt & Co., 1898. p. 12

(٣) A. L. Rowse : The Use of History, Hodder & Stoughton 1947 ص ٤٨

تختلف عن عقلية (تريفليان) ، فالأخير كان طفلا وصبيا ، يستغرق فى خياله ، يميل الى الشعر والى تذوق الأدب [١] ، فى حين أن (مل وهاڤت) اتجه ذهنهما اتجاها تحليليا ، والى فحص وتقصى الأدلة والبراهين . غير أنه اذا كان (مل) قد صادف من يمسك بكلتى يديه ويقوده نحو الطريق الصحيح ، فان (هاڤت) لم يكن محظوظا مثل (مل) اذ لم تتح له فرصة واحدة لتوجيه ميوله الوجهة الصحيحة حتى اذا ما التحق بالكلية واذا بهذه الميول تتفتح وتجد الفرصة لشحذها، وتبلورها حتى تصبح ميلا دائما نحو التاريخ النقدى Critical Histoy .

نستنتج من هذا أيضا ملاحظة أخرى هامة ، هى أن الفروق الفردية تملى علينا ضرورة تنويع طرق التعليم ، (فمل) مثلا لم يكن ليستوعب حقائق التاريخ الا بتفهم معانيها وبتقصى عللها وتتائجها الى درجة عبر بها عن اتجاهه فقال : « وقد رضت نفسى على التفكير فى أى أمر منذ الوهلة الأولى [٢] » . فى الوقت الذى أرغم (تريفليان) على أن يعى التواريخ (الأيام) والحقائق عن ظهر قلب منذ أن كان فى السادسة من عمره . ومن أجل توضيح الفرق بين الطريقتين يجمل بنا أن تتأمل الفقرتين الآتيتين المقتبستين من التراجم الذاتية لكل من (مل وتريفليان) يقول الأخير :

انى قد أجبرت على حفظ التواريخ والأشعار عن ظهر قلب ، كما يجب على جميع الأطفال أن يحذو حذوى ، هذا فى الوقت الذى لم تزل فيه ذاكرتهم غضة وقابلة للاستيعاب ، بدلا من أن نعمد الى حشدها بالعموميات عن التاريخ وعن النقد الأدبى ، تلك التى لا يمكن أن تعنى شيئا بالنسبة لعقليتهم القاصرة غير الناضجة [٣] .

فى حين أن (مل) يؤكد أنه : (لم يكن يسمح أبى بأن ألقن أو استوعب شيئا بطريقة آلية [٤] .

---

(١) و(٢) (Cox) : المرجع المذكور ص ١٥٨

(٣) تريفليان ، المرجع المذكور ، الترجمة الذاتية ص ٧

(٤) كوكس ، المرجع المذكور ، ص ١٥٨

فاذا كان التذكر يعد عمليـــة هامة فى تعـــلم التاريخ ، فهناك طرق مختلفة للتحفيظ : طريقة حشد الذاكرة بالحقائق والمعلومات دون فهمها ، وطريقة حفظها بعـــد فهمها ، كما أن هـــناك الذاكرة اللاشـــعورية Unconsious Memory تلك التى تعى الحقائق دون بذل مجهود فى معاناة حفظها ، أى بطريقة تلقائية كما كان الحال مع جيبون ، الذى لم يبذل مجهودا لتذكر الحقائق التاريخيـــة غير أن قراءاته العديدة المتفرقة ، واستعداده لتذكر ما يقرأ من حقائق ، جعله يتصور التعاقب التاريخى للأحداث ، ويرسم فى ذهنه الخرائط التاريخية .

كذلك يبين التحليل للبحث السابق بوضوح تشعب ميول هؤلاء المؤرخين المختـــارين . فكل منهم يميل الى فرع بل الى عصر مختلف من فـــروع وعصور التاريخ .

(فتريفليان) مثلا يظهر اهتماما شـــديدا بالتاريخ الحربى وبتاريخ معارك العصر الحديث ، بينما يميل (مل) الى التاريخ القـــديم بكل ما فيه من جفاف وغموض فهو يقول :

انه على الرغم مما يوصف به أسلوب هذا الكتاب من جفاف فقد وجدت سرورا طاغيا حينما تصفحت أحـــداث تاريخ العالم القديم ، وكلما أمعنت فى قراءته ذخرت رأسى بحقائق مفصلة تتصل بشعوب قلما يعرف الناس عنها شيئا ، لأنها موغلة فى القدم . هذا فى الوقت الذى لم يجذبنى اليه التاريخ الحديث اللهم الا اذا استثنينا صفحات مبعثرة هنا وهناك ، مثل حروب الاستقلال الهولندية ، فلم أعرها الا انتباها طفيفا ولم يهمنى أن أعرف عنها الشىء الكثير[1] .

فى حين أن جيبون كان يميل الى التاريخ الشرقى بكل ما فيه من سحر وثروة وغرابة وجمال .

النتيجة الهامة التى نخرج بها من هذا البحث أنه من العبث أن نعمد الى فرض تقسيم للعهود وللفروع التاريخية المختلفة لملائمة كل منها لمجموعة كبيرة

---

(١) مل : الترجمة الذاتية ، المرجع المذكور ص ١١

من التلاميذ ، فى مرحلة من مراحل التعليم المختلفة . يترتب على هذا أن انتاج التلاميذ يتخذ أشكالا عديدة ، فتريفليان ، وأمثاله يغرمون بالأسلوب الأدبى فى كتابة القصة التاريخية ، وهو يتجه اتجاها خاصا نحو التاريخ الحديث ، فى حين أن (جيبون) اتجه نحو ميدان آخر ووجد فيه (اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية) ما يغذى فكره ويشحذ همته لاخراج الفكرة الى حيز الوجود فى كتاب لم تزل له شهرة باقية [١] ، فى حين أن (مل) أصبح الكاتب الناقد السياسى الاجتماعى الاقتصادى فى القرن التاسع عشر .

كل هذا يشير الى ضرورة مراعاة مبدأ الفروق الفردية ، ليس فى توجيه قدرات التلاميذ فحسب ، بل فى ميولهم واتجاهاتهم ، وفى طرق تعلمهم .

كذلك يبين التحليل السابق بوضوح كيف أن الدور الذى تلعبه القدرات العقلية المختلفة باختلاف الأفراد المختلفين . فالتخيل مثلا قد لعب دورا أكبر فى تصور (تريفليان) للأحداث التاريخية ، فى الوقت الذى لم يحتل مكانا هاما فى عملية تعلم (مل) لهذه المادة بالذات ، اللهم الا عندما حاول نظم الشعر ، مقلدا للملاحم الاغريقية الخالدة . معنى هذا وجوب اهتمام المدرس باستخدام جميع القدرات العقلية المختلفة فى جميع المراحل التعليمية ، الأمر الذى يهدم النظرية التلخيصية من أساسها ، كذلك لابد من استخدام جميع الوسائل المعينة المشوقة والطرق التربوية المختلفة لنصل الى النتائج المرغوب فيها مع الأفراد المختلفين فى المستويات من حيث القدرات والاستعدادات والميول والاتجاهات .

كذلك اتضح من البحث أن من العبث أن نقسم التلاميذ الى مجموعات كبيرة متجانسة طبقا لميولهم وقدراتهم ، ففى الوقت الذى عجز فيه (تريفليان) عن متابعة الرياضيات أو الشعور بميل لها ، فان هذا العزوف لم يشترك فيه (مل أو جيبون) ؛ فقد أثر عنهما البراعة فى هذه المادة بالذات [٢] ، الأمر الذى يشير

---

(١) هرنشو ـ ترجمة عبد الحميد العبادى ، المرجع المذكور ص ٦٤

(٢) هذه النتيجة تتفق مع نتائج أبحاث أخرى كثيرة ـ أنظر مثلا : Terman, Lewis et Ia « الطفل الموهوب » المرجع المذكورة سنة ١٩٤٦ المجلد الرابع ص ٢٠٦

بوضوح الى وجوب ادخال التاريخ فى جميع المناهج التعليمية لأنه لا يتعارض مع أى اتجاه آخر نحو مادة أخرى . فالمبرز فى مادة الرياضة مثلا يستطيع أن يتفوق أيضا فى التاريخ ، وان تعميم تدريس مادة المجتمع العربى واتجاه المشرفين على بناء المناهج الدراسية — بل اصرارهم على وجوب تدريس تاريخ تطور المواد الدراسية جنبا الى جنب مع محتوياتها — فمثلا تدريس تاريخ العمارة بكلية الهندسة بجامعة الاسكندرية ليتفق تماما مع هذه النتيجة .

الى جانب هذه النتائج التى استقيناها من الفروق والاختلافات بين المؤرخين هناك ملاحظات عامة يمكن أن تستنتج من دراسة حالاتهم جميعا ، ولها فائدتها من الناحية التطبيقية فى ميدان تعلم التاريخ وهى :

١ — يصعب خلق ميل نحو التاريخ فى الأفراد مالم توجد البيئة الملائمة .

٢ — فاذا وجدت هذه البيئة ، فان ظهور الميل نحو التاريخ يأتى مبكرا ، فاذا لم تظهر ميول مزاحمة فمن المحتمل استمرار الميل نحوه حتى نهاية العمر ، وفى هذا المعنى فقط يمكن أن تتفق مع (راوزى)[١] ، على أن الميل نحو التاريخ يمكن أن يبدأ منذ المرحلة الأولى ، ويستمر حتى نهاية المراحل التعليمية الاجبارية[٢] .

٣ — يلعب المستوى الاقتصادى والاجتماعى دورا هاما فى ظهور وتطوير الميول نحو التاريخ ، فاليسر الاقتصادى ضرورى لتزويد الفرد بالبيئة المساعدة على اظهار هذه الميول ، كتزويد الفرد بمكتبة ملائمة ، ومنحه فرصة للاستعانة بمؤدب خاص ، واتاحة الفرصة لزيارة الأماكن التاريخية .

٤ — للتراث الاجتماعى دوره فى خلق الدوافع القوية المشجعة على نمو الميل نحو التاريخ والتخصص فيه .

---

(١) راوزى (Rowse) المرجع المذكور ص ١٦٦

(٢) المقصود بالمرحلة الإجبارية ، تلك التى لا بد لكل فرد من أن يمضيها بالتعليم الإلزامى . وتختلف مدتها باختلاف الدولة المشرفة على تنظيم التربية والتعليم ، فى انجلترا مثلا تنتهى عند سن الخامسة عشرة ، وتمتد إلى الثامنة عشرة ، كمرحلة جزئية .

٥ — يستطيع المدرس أن يقوم بدور هام فى بعث الميل نحو التاريخ ، كما يساعد على تنشيطه وتعهد التلاميذ بأحسن الطرق التعليمية .

٦ — قد يفوق أثر الأسرة تأثير المدرس والمدرسة فى توجيه ميول أفراد الأسرة .

٧ — الصحة عامل هام فى متابعة الدراسات وفى الانتاج المبكر .

٨ — القراءة المنتظمة المستمرة الواعية عامل هام يساعد عملية تعلم التاريخ .

٩ — دراسة الأشعار التاريخية ، وتعلم اللغات الأجنبية تعين على دراسة التاريخ دراسة مفيدة .

١٠ — الكتابة الحرة تمرين مفيد ، كما هى دليل على الميل والاهتمام بدراسة التاريخ .

١١ — عملية الاستذكار الواعى أفضل طريقة لكتابة القصة التاريخية كتابة سليمة .

١٢ — مناقشة الحقائق واستعادتها بأسلوب الفرد الذاتى ، طريقة مفيدة تؤدى الى فهم الحقائق وتساعد على الوصول الى رأى مستقل .

١٣ — معرفة مدلولات الاصطلاحات التاريخية عامل هام يساعد الفرد على التعبير عن أفكاره .

١٤ — يؤدى الولع بالتاريخ ، وحب الاستطلاع الموجه الى الرغبة فى اكتناه الحقائق والى المثابرة على تعلم هذه المادة .

١٥ — تلعب القدرة العقلية العامة دورا هاما فى تفهم المعانى التاريخية .

١٦ — للعادات الجيدة فى الاستذكار أثرها فى ابلاغ الفرد تحقيق أهدافه .

١٧ — بينما يستطيع الفرد أن يبدأ بتناول المادة التاريخية تناولا واعيا فى مرحلة مبكرة كما هو الحال مع (مل) يمكن أن تتأخر حتى الربيع العشرين كما هو الحال مع (جيبون) .

بما أن هؤلاء المؤرخين الكبار ، قد نشأوا فى ظل التربيـة التقليـدية التى سيطرت عليها نظريات الملكات والتـدريب الشكلى ، وانتقال أثر التدريب ، فالطرق التى تعلموا بها التاريخ لا تتفق مع مبادىء نظريات التعلم الحديثة ، فمثلا لم تكن طرق المعامل أو المشكلات أو الوحدات قد ظهرت بعد . على الرغم من ذلك كله ، يجب أن تتذكر أن الهدف الذى ترمى اليه هذه الطرق الحديثة هو وقوف التلميذ موقفا ايجابيا فى عملية التعلم وقد تبين من التحليل المذكور كيف أمكن بلوغ هـذا الهدف بعينه بالنسبة للمؤرخين المختـارين فى ظل التربية التقليدية . فتريڤليان ومل وجيبون كانوا جميعا قراء نهمين متشوفين للمعرفة ، لهم ميل للتعلم ولهم رغبة فى تحقيق هدفهم ، وجميعهم قد سجلوا نجاحا ملحوظا فى ميدان تعلمهم ، وكانوا منهومين بصفة خاصة بالتاريخ .

التوجيه الفنى (التفتيش)
أهدافه ووسائله

للدكتور منير كامل

المدرس بقسم التربية وعلم النفس

« التوجيه الفنى » مصطلح جديد نسبيا فى بلادنا ، يفضل كثير من رجال التربية استخدامه بدلا من المصطلح التقليدى وهو « التفتيش » .

فما سر هذا التفضيل ؟ وفيم يختلف التوجيه الفنى عن التفتيش من حيث الأهداف والوسائل ؟ وكيف نجعل من التوجيه الفنى أداة فعالة لتحسين التعليم ؟

ان هذا يقتضى أن نبدأ بتحليل طبيعة عملية التفتيش ، وندرس أهدافها ووسائلها ، ونبين نواحى القصور فيها ، ثم ننتقل الى عملية التوجيه الفنى ، ونوضح كيف تختلف عن التفتيش ، وكيف تسهم فى تحقيق أهداف التربية .

التفتيش التقليدى :

حينما أنشىء نظام التفتيش كان هدفه الأساسى مراقبة أعمال المدرسين واخطار الوزارة عن أى تقصير أو مخالفة قد تقع منهم أثناء قيامهم بتنفيذ المنهج ، وبذلك تضمن الهيئة المركزية تنفيذ تعليماتها وتوجيهاتها على الوجه الذى ترتضيه. ولكى تكون المراقبة منتجة — فى نظر المفتش — فانه يقوم بزيارات مفاجئة للمدرس أثناء التدريس حتى يراه فى موقف يعتقد أنه « طبيعى » ، فيأخذ فى الاستماع الى شرحه ، ويقوم بفحص أعماله ، وقد يوجه الى التلاميذ بعض الأسئلة لاختبارهم فيمادرسوه ، فان أجادوا ، اتخذ ذلك دليلا على كفاية المدرس فى الشرح ، وان قصروا فى الاجابة ، عد ذلك دليلا على تقصير المدرس فى عمله . ثم يكتب تقريرا عن المدرس يتضمن ملاحظاته عنه وتقديره له . ويرفع هذا التقرير

الى المختصين فى الوزارة لدراسته والاسترشاد به فى ترقية المدرس أو نقله أو مجازاته .

وفى نهـاية الزيارة ، تتم مقـابلة قصيرة بين المفتش والمدرس حيث يتلقى المدرس من المفتش ملاحظاته وتعليماته التى ينبغى أن تراعى فى المرات القادمة .

نقد التفتيش التقليدى :

لكى نحكم على مدى صلاحية هذا النظام ، نحاول أن نطبق عليه المعـايير الآتية :

١ ـ الى أى مدى يتسق هذا النظام مع الفلسفة الديمقراطية ؟

من المسلم به أن أية فلسفة تربوية ينبغى أن تشتق من فلسفة المجتمع . ولما كنا فى بلادنا قد اخترنا الديمقراطية الاشتراكية التعاونية ، فلسفة نسترشد بها فى حياتنا ، وجب أن تكون التربية فى بلادنا من حيث نظمها وأهـدافها ومناهجها وطرقها بحيث تعكس هذه الفلسفة . فالتربية الديمقراطية الحقة هى حجر الزاوية فى بناء المجتمع الديمقراطى الذى نسعى الى بنائه .

والديمقراطية كفلسفة وكأسلوب للحياة تقوم على : احترام شخصية الفرد واتاحة الفرص المتعددة أمام كل فرد لكى ينمو الى أقصى حد تؤهله له مواهبه وقدراته واسـتعداداته . كما تقوم أيضا على التعاون ، فتؤمن الديمقراطيـة بأهمية التشاور الحر المتبادل بدلا من فرض الآراء من جانب واحـد . وتؤمن الديمقراطية أيضا بضرورة تحرير ذكاء الفرد بحيث يصبح مرشدا لسلوكه ، ويمكنه من الاسهام فى حل مشكلات الجماعة بطريقة علمية .

فأين التفتيش التقليدى من هذه المبادىء ؟.. ان التفتيش يتنافى مع مبدأ احترام شخصية الفرد ، فالمدرس يجد نفسه مقيدا بتعليمات المفتش وآرائه التى تملى عليه املاء ، وتفرض عليه فرضا ، وبذلك يعوق هـذا النظام نمو المدرس المهنى ويكبت قدرته الابتكارية .

والعـلاقة بين المفتش والمدرس قلما تقوم على أسس ديمقراطيـة سليمة . فالمفتش باهتمـامه الزائد بتلمس عيوب المدرس والكشف عن أخطـائه يثير الكراهية فى نفس المدرس والحقـد نحو المفتش الذى يمثل لديه السلطة واملاء الارادة ، وبذا يخفق هذا النظام التقليدى فى الارتفـاع بالعلاقة بين المدرس والمفتش الى مستوى المشاركة الديمقراطية التى تتيح لكل فرد سواء أكان رئيسا أم مرءوسا المجال لتبادل الآراء ، والتعبير عن الرأى بحـرية تامة ، ودراسـة المشكلات فى جو حر طليق مشبع بروح المودة والصداقة .

ولاشك أن تقـدير المفتش للمدرس على أساس عـدد قليل من الزيارات القصيرة يقضيها المفتش فى موقف المراقب لعمل المدرس ، وفى اختبار بضع تلاميذ وتصفح عدد قليل من الكراسات لايمكن أن يعتبر تقديرا علميا صحيحا . فالمفتش ينظر الى المدرس من ناحية واحدة فحسب وهى قدرته على الشرح والمامه بمادته متجاهلا النواحى الأخـرى الهامة فى أعمـال المدرس ، كنشـاطه الاجتماعى والرياضى فى المدرسـة أو خارجها ، وتعـاونه مع زملائه المدرسين ، وعلاقته بتلاميذه ، وأثره فى الجو المدرسى .

٢ ـ الى اى مدى يساعد هذا النظام المدرس على تحسين مستواه المهنى؟

ان معظم المدرسين يشعرون أنهم فى حاجة ماسة الى من يعاونهم فى تحسين أساليب تدريسهم وتقويمهم لأعمال التلاميذ وزيادة فهمهم لمشكلات البيئة التى يعيشون فيها ، كما أنهم فى حاجة الى من يبصرهم بوسائل الاستفادة من المصادر المـادية والانسانية فى البيئة المحليـة ، وينمى قدرتهم على استخدام الوسائل التعليمية الحديثة ، ويشجعهم على مداومة الاطلاع والوقوف على أهم مايستحدث فى ميدان التربية .. فكل ذلك ضرورى لحسن قيام المدرس بعمله .

ولكن التفتيش التقليدى أهمل كل ذلك ، وضيق نطاقه الى أقصى حد ، حتى كاد عمل المفتش يصبح روتينا يتضمن كتابة التقارير عن المدرسـين ، واعطاء التقديرات ، واجراء التحقيقات ، وجمع الاحصاءات .. وبذلك بَعُدَ التفتيش عن تحقيق رسالته الفنية .

٣ — الى أى مدى يهتم هذا النظام بدراسة التلميذ نفسه ؟

لقد نادت التربية الحديثة بضرورة جعل التلميذ محورا للعملية التربوية ، فحاجات التلاميذ ومشكلاتهم وميولهم ينبغى أن تكون حجر الزاوية فى بنـاء المنهج المدرسى ، كما ينبغى أن يرتبط ما يتعلمه التلميذ بأغراض جديرة باهتمامه حتى يقبل على التعلم بشغف .

ولكن التفتيش التقليدى لا يؤمن بهذا المبـدأ التربوى الهام . فالمدرس — لا التلميذ — هو محور عملية التفتيش ، واهتمام المفتش ينصب على تدريس المادة وطريقة شرحها ، ولا يعنى بدراسة مشكلات التلاميذ ولا بوسائل حلها . فالتأخر الدراسى ، والانطواء وكراهية التلميـذ للمادة ، وضعف العـلاقات الانسانية بين المدرس والتلميذ .. كل هذه أمثلة من مشكلات تنتشر بين التلاميذ وينبغى أن يوجه المدرس الى أفضل الوسائل فى تشخيصها وعلاجها .

ومما تقدم نرى أن التفتيش بهذه الصورة لا يتمشى مع المبادىء الديمقراطية ولا يتفق مع اتجاهات التربية الحديثة .

« توجيه » لا « تفتيش » :

ان ادراك المربين لعيوب التفتيش التى أوضحناها سابقا ، وزيادة تشبعهم بالفلسفة الديمقراطية ، وبالاتجاهات الحديثة فى التربية ، كل هـذه العوامل قد جعلت التفتيش التقليـدى غير ذى موضوع ، فاتجه المربون الى « التوجيـه الفنى » ليحل محل التفتيش ، ولكن ما طبيعة عمليـة التوجيه الفنى ؟ وما هى أهدافه ووسائله ؟

أهداف التوجيه الفنى :

نستطيع فى ضوء تحليلنا لفلسفتنا التربوية ودراستنا للاتجاهات الحديثة فى التربية أن نحدد أهداف التوجيه الفنى فيما يلى :

١ — تقديم الخدمات الفنية للمدرسين : فالموجه هو الخبير التعليمى الأول فى المنطقة أو القسم ، ومن واجبه أن يسائل نفسه :

— ما الخدمات الفنية التى أستطيع أن أقدمها للمدرسين ؟

— كيف أستطيع أن أعاونهم فى حل مشكلاتهم التعليمية ؟ وتحسين طرق تدريسهم ؟

— كيف أشجعهم على اجراء تجارب جديدة فى التدريس ؟

— كيف أساعدهم على تقويم أنفسهم ، وتقويم أعمال تلاميذهم ؟

— ما هى المراجع التى يحسن أن يقرأوها ؟ والأفلام التعليمية التى يحسن أن يشاهدوها ؟ والنماذج والوسائل الحديثة التى يجدر أن يستخدموها ؟

٢ — تحسين العلاقات الانسانية بين أعضاء هيئة التدريس بكل مدرسة . وذلك عن طريق فهمهم كأفراد ، وتقدير جهود كل منهم ، واحترام شخصياتهم ، وبث روح التعاون بينهم ، والعمل على تهيئة جو ديمقراطى طليق ، مشبع بالثقة حتى ينمو كل منهم الى أقصى حد مستطاع ، وبذلك يصبح الموجه قائدا ديمقراطيا فى شئون التربية .

٣ — تنسيق الجهود فى كل مدرسة من المدارس التى يشرف عليها . فالموجه فى مركز يسمح له بأن يرى المدرسة كوحدة ، وبذلك يستطيع أن يعاون جميع أعضاء أسرة المدرسة على التقدم نحو تحقيق أهدافهم التربوية ؛ كما يساعد على تنسيق أوجه النشاط داخل المدرسة ، وتنسيق ما تقوم به المدرسة من نشاط مع نشاط الهيئات الأخرى فى البيئة ، وتنسيق النشاط الرياضى والاجتماعى والثقافى بين المدارس التى يشرف عليها .

والواقع أن وظيفة التنسيق هذه من الأهمية لدرجة أن كثيرا من رجال التربية فى أمريكا يفضلون أن يطلقوا على الموجه الفنى لقب « منسق »

٤ — الاهتمام بدراسة جميع الظروف التى تؤثر فى عمليتى التدريس والتعلم.

فمن العوامل التى تؤثر فى عملية التدريس مايأتى :

(١) المعلم : يعتبر المعلم أهم العوامل التى تؤثر فى عمليتى التدريس والتعلم فلا شك أن تحمسه لعمله ومعرفته لتلاميذه ، والمامه بمادته ، ومهارته

فى توجيه التلاميذ فى مراحل عملية التعلم ، وقدرته على تنمية الروح الديمقراطية فى التلاميذ ، وادراكه لعوائق التعلم ولوسائل التغلب عليها .. كل ذلك يؤثر فى تعلم التلاميذ ، لذلك ينبغى أن يستهدف الموجه رفع مستوى المعلم ، ومساعدته على زيادة فهمه لخصائص نمو التلاميذ وحاجاتهم النفسية والاجتماعية والبيولوجية ووسائل اشباعها ومعاونتهم على تحليل الصعوبات الخاصة بالتعلم ، كما ينبغى أن يساعده على الالمام بخصائص البيئة التى توجد بها المدرسة والتعرف على مصادرها المادية والانسانية والتدرب على وسائل استغلالها .

(ب) المنهج : ينبغى أن يستهدف الموجه معاونة المدرس على دراسة المقررات الدراسية والكتب المقررة ، وتحليلها ونقدها واقتراح تحسينها .

(جـ) الوسائل المعينة على التدريس : مثل الكتب والمجلات والخرائط والنماذج والأفلام والعينات والصور الفوتوغرافية والرسوم التوضيحية والبيانية .. ولهذه الوسائل أثر كبير فى تسهيل عملية التعلم؛ فهى تثير اهتمام التلاميذ نحو المدرس ، وتساعد على ايضاح العمليات أو الخطوات التى يتضمنها الدرس ، كما تساعد على تعلم بعض المهارات . لذلك ينبغى على الموجه أن يتعاون مع المدرسين فى تزويد كل مدرسة بهذه الوسائل التعليمية ، وأن يساعد المدرس على اختيار الوسائل المناسبة ، ويوجهه الى الطرق الصحيحة فى استخدامها .

أما العوامل التى تؤثر فى عملية التعلم فهى :

(ا) عوامل بيولوجية : وتشمل الصحة العامة للتلاميذ — التغذية — سلامة الحواس — قيام الغدد بوظائفها الخ .. فسوء التغذية مثلا يعوق نمو التلميذ ، ويؤثر فى قدرته على التعلم ، لذلك فان من واجب الموجه أن يعنى بمشكلة التغذية فى المدارس لما لها من تأثير كبير فى قدرة التلاميذ على التعلم .

ولما كانت العوائق الجسيمة كضعف البصر أو السمع أو صعوبات النطق أو صعوبة التحكم فى بعض العضلات يعوق تعلم المهارات الأساسية ، لذلك كان من واجب الموجه أن يعنى عناية خاصة بهؤلاء الأطفال الذين يعانون من هذه العوائق ، ويعمل على انشاء فصول خاصة لهم .

(ب) عوامل نفسية — اجتماعية : فللحالة النفسية أو الاجتماعية أثر كبير على التعلم ، فالخوف أو الاضطراب أو عدم التكيف نفسيا واجتماعيا للحياة المدرسية يعوق التعلم . لذلك فان من واجب الموجه أن يعاون المدرس فى دراسة حالات التلاميذ الذين يعانون مشكلات نفسية أو اجتماعية ، ويرسم الخطط مع المدرسة لعلاجهم .

(جـ) عوامل عقلية : فانخفاض الذكاء من أهم عوائق التعلم ، لذا كان من واجب الموجه العناية بالتلاميذ ذوى الذكاء المنخفض والعمل على تنظيم فصول خاصة لهم .

(د) عوامل بيئية : وتشمل ظروف التهوية ، والاضاءة ، ودرجة الحرارة ، والهدوء ، ونوع المقاعد فى الفصل ، ووفرة الملاعب ، وحجر الأشغال والموسيقى والنشاط .

فلهذه العوامل أثر كبير فى تعلم التلاميذ ، لذلك فان من واجب الموجه أن يعنى بدراسة حالة المبانى المدرسية ، والفصول ، والأثاث ، ويعمل على توفير الظروف المادية اللازمة لعملية التعلم .

تعريف التوجيه الفنى :

ومما تقدم يتبين أن التوجيه الفنى هو « قيادة ديمقراطية فنية متخصصة ، تعمل بالتعاون مع جميع عناصر الجهاز التعليمى على دراسة الظروف التى تؤثر فى عمليتى التدريس والتعلم ، والعمل على تحسينها بالكيفية التى تكفل لكل تلميذ نموا مستمرا نحو أهداف التربية المنشودة » .

وسائل التوجيه الفنى :

ان الوسائل التى يمكن للموجه أن يستخدمها لتحقيق أهدافه كثيرة وتشمل : زيارة المدرسين فى فصولهم — تبادل الزيارات بين المدرسين — تنظيم الورش التربوية — تكوين اللجان للقيام بالبحوث الفنية — عقد الاجتماعات بين المدرسين — اصدار النشرات التوجيهية — اصدار صحيفة القسم — اعداد دراسات للمدرسين فى الخدمة — عرض الأفلام التربوية — اقامة المعارض التعليمية . وسوف نتكلم عن كل هذه الوسائل فيما يلى :

أولا — زيارة الموجه للمدرسين فى فصولهم : وهى من الوسائل الشائعة ، وينبغى أن يكون القصد منها دراسة المشكلات التعليمية التى تهم المدرس ، وتشخيصها ، والتعاون مع المدرس على علاجها . واذا ما اقتنع المدرس بجدوى هذه الزيارات ، فانه ولاشك يرحب بها ، بل وقد يطلبها بنفسه ، وقد يكون من المفيد أن يشجع الموجه المدرس بأن يصارحه بالمشكلات التعليمية التى تعترضه حتى يوليها الموجه اهتماما خاصا خلال زيارته للفصل . ومن المهم أن يدون الموجه ملاحظاته خلال الزيارة ، وتتضمن هذه الملاحظات : استعداد المدرس العقلى ، والمامه بمادته ، وطريقة تدريسه ، وعلاقته بتلاميذه ، ومدى تحمسه لعمله ، واتزانه الانفعالى .. كذلك ينبغى أن يلاحظ الموجه الجو العام الذى يسود الفصل ومدى استجابة التلاميذ للمدرس ، واقبالهم على العمل .

وقد يجد الموجه أن هناك مواقف يحسن أن يتدخل فيها ، كأن يوجه الى التلاميذ بعض الأسئلة أو يقوم بالتدريس جزءا من الحصة اذا رأى أن ذلك أجدى فى توجيه المدرس ، على أن يتم ذلك بطريقة لا تحرج المدرس أو تخدش كرامته.

وقد حدث أن كان أحد الموجهين يلاحظ مدرسا مبتدئا وهو يقوم بشرح عملية الترشيح . فعرض المدرس على تلاميذه جهاز الترشيح المعتاد ، وأجرى عملية الترشيح بواسطة ورقة الترشيح . وكان التلاميذ يراقبونه فى شغف وهو يضع ورقة الترشيح فى القمع الزجاجى ويصب الماء العكر فى القمع فتنزل قطرات

المـاء الصافى الى الـكأس . وانتهى الشرح ، وهم المدرس بـكتابة الملخص السبورى . وفى هذه اللحظة رأى الموجه أن يتدخل ، فوجه الى التلاميذ السؤال الآتى « هل يمكنكم اجراء عملية الترشيح فى المنزل ؟ » فأجابوا بالنفى ، وفسر أحدهم ذلك بأنه ليس لديهم بالمنزل « جهاز » للترشيح .. فأخذ الموجه يناقش التلاميذ حتى فهموا أن الترشيح يمكن أن يتم باستخدام قمع من الصفيح بدلا من القمع الزجاجى ، والقطن أو الشاش بدلا من ورقة الترشيح ، والكوب والملعقة بدلا من الكأس والمحرك الزجاجى ، وأن عمليـة الترشيح تستخدم فى الحياة اليومية فى فصل مشروب الشاى عن أوراقه ، وفى تصفية أنواع الشراب التى يصنعها التلاميذ فى منازلهم ، وفى التخلص من المواد العالقة بالكيروسين . وهكذا ساعد الموجه التلاميذ على أن يفهموا كيف يستخدمون عملية الترشيح فى الحياة اليومية ، وفى الوقت نفسه وجه المدرس — بطريقة غير مباشرة — الى مبادىء تربوية هامة ، كربط الدرس بحياة التلاميذ ، وتبسيط الأجهزة العلمية .

ويعقب كل زيارة اجتماع بين الموجه والمدرس لمنـاقشة ملاحظات الموجه ، وتبادل وجهات النظر فى المشكلات التى كانت موضع الملاحظة والبحث . كما يتيح هذا الاجتماع الفرصة لمتابعة أعمال المدرس ونشاطه فى المدرسة . وعلى الموجه أن يلاحظ علاقة المدرس الاجتماعية بزملائه ، ومدى تعاونه مع الناظر ، ومدى نشاطه خارج جدول الدراسة .

ولكى يكون هذا الاجتماع منتجا ، يحسن أن يراعى الموجه مايأتى :

١ — أن ينشىء علاقة انسانية طيبة مع المدرس : فاذا نجح الموجه فى ذلك فان تعليقاته وملاحظاته وتوجيهاته سوف يتقبلها المدرس بفهم وبروح طيبة .

٢ — أن يشعر المدرس بأنه يرغب رغبة صادقة فى مساعدته : وبذلك يتعاون المدرس مع الموجه ويكشف له عن مشكلاته الحقيقية ، ويطلب منه معاونته فى حلها .

٣ — أن يتلمس النواحى الطيبة فى المدرس ويشجعها : فالاعتراف بنواحى القوة فى المدرس من شأنه أن يكون عند المدرس شـعورا وديا نحو الموجه .

فيحسن بالموجه أن يعبر عن رضاه وتقديره لنواحى القوة فى عمل المدرس ، على شرط أن يكون ما يقال له أساس حقيقى ، ولا يحمله على الغرور .

٤ — أن يساعد المدرس على تحليل أعماله وتقويم نفسه بنفسه : فالموجه الذى يخبر المدرس دائما ماذا يفعل وكيف يعمل ، لا يساعد المدرس على النمو ، لأن المدرس فى هذه الحالة يعتمد على ما يتلقاه من التعليمات من الموجه ، ويسلك طبقا لها دون أن يفكر فى تعديلها أو تكييفها طبقا للظروف المتغيرة .

أما الموجه الناجح ، فهو الذى يساعد المدرس على أن يكتشف بنفسه أهم عناصر قوته ، ونواحى ضعفه ، ويشجعه على وضع الخطط لتحسين عمله . وعلى ذلك فينبغى أن يتيح الفرصة الكافية للمدرس لأن يحلل أعماله ويقوم نفسه ويرسم الخطط للتحسين والتقدم . فتحليل المدرس لنفسه من أهم وسائل نموه .

٥ — أن يكون محددا فى توجيهاته ، وأن يبين بالأمثلة المواقف التى يحسن تعديلها : فينبغى أن يتفادى الموجه الملاحظات العامة ، فاذا قال الموجه للمدرس « ان تدريسك جيد » فعليه أن يبين بالتحديد فى أى النواحى أجاد . واذا قال للمدرس « ان عملك غير مرض » فعليه كذلك أن يوضح السبب فى ذلك ، والا فانه يبث فى نفس المدرس روح اليأس دون يقدم له مساعدة ايجابية ، فلتكن ملاحظات الموجه للمدرس واضحة محددة ، كأن يقول له مثلا « كان يحسن البدء بالأمثلة واستنتاج القاعدة من التلاميذ بدلا من البدء بذكر القاعدة » ، أو « كان يحسن استخدام أمثلة مألوفة للتلاميذ » ، أو « كان يحسن استخدام أجهزة بسيطة غير معقدة » .

٦ — أن يكون التطلع الى المستقبل شعار كل من الموجه والمدرس : فتحليل أى موقف من مواقف المدرس انما تتوقف قيمته على مدى ما يفيده المدرس من ذلك التحليل فى تحسين مواقفه فى المستقبل . وعلى ذلك ينبغى استغلال وقت الاجتماع لرسم الخطط البنائية لتحسين المدرس ، بدلا من اضاعة الوقت فى لومه.

ثانيا — تبادل الزيارات بين المدرسين : فمن الممكن أن يشير الموجه على مدرس مبتدىء أو ضعيف بزيارة زميل له ممتاز فى المدرسة نفسها أو فى مدرسة أخرى ، ويحسن أن يحدد الموجه للمدرس الزائر ما ينبغى ملاحظته بصفة خاصة أثناء زيارته لزميله الممتاز .

ثالثا — تنظيم الورش التربوية : (Educational Workshops)

الورشة التربوية هى تنظيم يمكن كل عضو من الأعضاء المشتركين فيها من دراسة مشكلة يرغب فى حلها تحت اشراف عدد من الموجهين والاخصائيين .

وينقسم المشتركون عادة الى جماعات صغيرة (من ٨ — ١٠) وتقوم كل جماعة ببحث المشكلة التى تهمها وذلك تحت توجيه الاخصائيين ، وعلى ذلك فليس هناك برنامج موضوع مقدما ، بل يترك أمره للجان . وتزود كل ورشة بمكتبة حافلة بأحدث المؤلفات التى تعالج مختلف المشكلات التربوية . والطابع الذى يغلب على هذه الدراسات هو العمل والانتاج ، فالجانب الأكبر من الوقت يخصص لانتاج الوسائل المعينة على التدريس ، أو وحدات دراسية ، أو بطاقات خاصة بتدريس المادة المعينة الخ .. وبجانب ذلك هناك بعض المحاضرات العامة وفترات لعرض الأفلام التربوية وفترات أخرى للنشاط الاجتماعى والترويحى .

وتستغرق الورشة التربوية عادة من أسبوعين الى أربعة ، وقد تمتد الى ستة أسابيع ، ويحسن عقدها فى العطلة الصيفية أو فى عطلة نصف السنة .

ولهذه الورش مزايا كثيرة :

١ — فهى تتيح للمدرس فرصة العمل لحل مشكلات يحس بها ويرغب فى حلها .

٢ — تتيح المجال للمدرس لكى ينمو شخصيا واجتماعيا ومهنيا .

٣ — تتيح المجال للمدرس لكى يمارس الحياة الديمقراطية عمليا . فالعمل فى الورشة يتيح المجال أمام كل عضو للتعبير عن رأيه ، واحترام آراء الآخرين ، والتعاون مع الغير ، وتحمل المسئولية ، وحل المشكلات بطريقة علمية .

٤ — تتيح للموجهين الفرصة لمساعدة المدرس بطريقة عملية .

٥ — يستخدم المدرسون ما اتجوه من كتب أو نشرات أو وحدات أو وسائل أيضاح فى تدريسهم بعد رجوعهم من هذه الورش ، وبذلك تتحسن طرق تدريسهم .

وبجانب هذه المزايا ينبغى أن تكون هناك مزايا لمن يحضرون هذه الورش ، فيمكن أن يقوم عمل المدرس خلال حضوره هذه الورش ، ويكون لذلك اعتبار عند ترقيته .

وطبيعى أن تكون بعض هذه الورش أفضل من الأخرى ، وذلك يتوقف على تنظيم الورشة وطريقة ادارتها ، وحماسة المشتركين فيها .

رابعا — تكوين لجان للبحوث الفنية : ومن وسائل التوجيه الفنى أن يعهد الموجه الى بعض المدرسين القيام ببحث بعض المشكلات الحقيقية القائمة فعلا فى مدارسهم والتى يرغبون فى حلها ، وحينئذ تتألف اللجان للقيام بهذه الأبحاث .

ويحسن مراعاة مايأتى فى تأليف اللجان :

١ — تركيز عمل كل لجنة حول مهمة واضحة محددة ، تشعر اللجنة بأهميتها . ومن أمثلة هذه المهام : دراسة حالات الأطفال المتأخرين دراسيا ، تحسين البطاقات المدرسية ، تحسين الوجبة الغذائية ، اختيار الكتب التى تصلح لقراءة الأطفال .

٢ — حسن اختيار أعضاء كل لجنة : فقد ينجح مدرس ما فى لجنة معينة ، ولكنه يخفق اذا وضع فى لجنة أخرى ، وذلك لعدم ملاءمة كفاياته وقدراته وخبراته للمهمة التى تبحثها اللجنة ، فمدرس اللغة العربية مثلا ينجح كعضو فى لجنة اختيار الكتب للمكتبة ، ولكنه ربما لاينجح كعضو فى لجنة تحسين الوجبات الغذائية .

٣ — جعل عدد أعضاء اللجنة مناسبا : فلا يكون هذا العدد كبيرا جدا لدرجة يصعب معها تبادل الآراء بين الأعضاء ، وفى نفس الوقت لا يكون صغيرا لدرجة أن اللجنة لا تمثل سوى وجهات نظر قليلة وكفايات محدودة .

٤ — تقدم اللجنة نتيجة بحثها فى تقرير مكتوب يوزع على بقية أعضاء هيئة التدريس ، ويحسن أن يكون التقرير منظما بصورة عملية تجعل الافادة منه سهلا ميسورا .

وفى خلال قيام كل لجنة بمهمتها ، يقوم الموجه بتوجيه كل لجنة الى طريقة بحث المشكلة وجمع البيانات واستخلاص النتائج .

خامسا — عقد اجتماعات للمدرسين : وذلك بحضور ناظر المدرسة لدراسة المشكلات الفنية والادارية ، وفيما يلى بعض المقترحات التى تجعل اجتماعات المدرسين منتجة :

١ — ينبغى أن تعقد الاجتماعات لتحقيق أغراض محددة واضحة ، وأن تكون هذه الأغراض هامة بالنسبة لمعظم المدرسين أو كلهم ، وحينئذ يقبلون على حضور هذه الاجتماعات بروح طيبة وباهتمام .

٢ — ينبغى أن ترسم الخطط بعناية لعقد هذه الاجتماعات وتنظيمها وتسلسلها وتحديدمواعيد انعقادها .

٣ — يحسن استشارة المدرسين عن الموضوعات التى ينبغى بحثها فى الاجتماعات ، وعمن يدعون الى الاجتماع من الخارج للاستعانة بهم فى بعض الأحوال . فاشتراك المدرسين فى التخطيط والتنظيم وادارة الاجتماعات يؤدى الى نتائج طيبة .

٤ — يحسن أن ترسل مقدما نشرة الى المدرسين تتضمن : مكان الاجتماع وموعد انعقاده والغرض منه ، والمشكلات أو الموضوعات التى ستناقش فى الاجتماع حتى يتاح للمدرسين الوقت الكافى للاستعداد للمناقشة .

٥ — يحسن أن يشترك المدرسون فى مناقشة المشكلات التى تطرح للبحث بدلا من مجرد الاستماع الى محاضرات عن هذه المشكلات . فالمناقشة الجماعية ، والندوات والمحاضرة التى تتلوها مناقشة أفضل من مجرد الاستماع الى محاضرة شكلية .

٦ — ينبغى أن تدار المناقشات بمهارة ، فرئيس الاجتماع ينبغى أن تتوافر فيه المقدرة على ادارة المناقشة بنجاح ، والا انحدرت هذه الاجتماعات الى مناقشات مملة عديمة الجدوى (دردشة) .

سادسا — اصدار النشرات التوجيهية للمدرسين : وهى نشرات يشترك فى اعدادها عدد من الموجهين عادة فى كل منطقة تعالج كثيرا من المشكلات التربوية الهامة التى تتعلق بمشكلات الأطفال ، وصعوبات التعلم ، ومشكلة تقويم أعمال التلاميذ ، أو طرق استخدام بعض وسائل الايضاح الحديثة . ولهذه النشرات مزايا متعددة منها :

— انها تعطى نوعا من متابعة الوقوف على ما يجد من الأساليب التربوية .

— تتوافر فى هذه النشرات عناصر الدقة والشمول التى ربما لا تتوافر فى الملاحظات الشفوية .

— توفير وقت الاخصائيين ، فقد لا يتيسر دائما أن يكون الاخصائيون فى خدمة المدرسين فى الوقت الذى ينشدونه .

بعض المبادىء التى يسترشد بها فى اعداد هذه النشرات :

— ينبغى أن توجه النشرة نحو حل مشكلة معينة محددة تهم الجميع .

— ينبغى أن تثير اهتمام القراء وتدعوهم للتفكير . فيحسن أن تتضمن أسئلة يجيب عنها المدرسون ، أو يطلب من المدرسين ابداء الرأى فى المقترحات الواردة فى النشرة ، ويحسن أيضا أن تتضمن النشرة بعض المراجع لمن يريد الاستزادة من الاطلاع .

— ينبغى أن يراعى فيها ما يراعى فى الكتاب الجيد من حيث الأسلوب والشكل والصور والعنوان والتنظيم الخ ..

سابعا — اصدار صحيفة القسم : وتشمل دراسة دقيقة للبيئة واحصائيات شاملة عن مدارس القسم وأخبارها ومدى ما أحرزته من نجاح أو ما اعترض

بعضها من مشكلات وعوائق ، ولتسجيل التجارب المبتكرة والبحوث المجدية الخ ..

ثامنا — اعداد دراسات للمدرسين الذين فى الخدمة : فى بعض الأحيان تنظم دراسات للمدرسين الذين فى الخدمة تعرف بأسماء مختلفة مثل :

الدراسات العليا أو التكميلية الخ .. وتنظم لها مواعيد محددة (جدول حصص) وتحدد لها مقررات فى مواد معينة يقوم بتدريسها عادة أساتذة من معاهد اعداد المعلمين والجامعة ، ومن مزايا هذه الدراسات مايأتى :

— انها تفسح المجال أمام المدرسين للحصول على مساعدة الاخصائيين فى فروع التربية وعلم النفس ، فأساتذة معاهد اعداد المعلمين والجامعة يعتبرون متخصصين فى فروع التربية .

— تتيح للمدرسين فرصة الانتفاع بالمكتبة التى غالبا ما تكون حافلة بالمراجع التى قد لا يجدها المدرس فى مدرسته .

— تتيح للمدرسين الفرصة للاجتماع وتبادل الآراء مع زملائهم فى المدارس الأخرى .

ومن عيوب هذه الوسيلة أن المشكلات والنواحى التربوية التى تقدم فى هذه الدراسات لا تكون غالبا من نفس المشكلات التى يحس بها المدرسون . فالاهتمام فى هذه الدراسات ينصب على النظريات أكثر من التطبيقات العملية ، مما يجعل الدراسة فى كثير من الأحيان قليلة الجدوى .

تاسعا — عرض الأفلام التربوية : فعرض الأفلام التربوية التى توضح طرق التربية الحديثة كطريقة الوحدات ، أو طرق الاستفادة بالمعينات البصرية والسمعية ، أو وسائل توثيق العلاقة بين المنزل والمدرسة ، أو تعليم الكبار الخ.. له فائدة كبيرة . وينبغى تنظيم عرض هذه الأفلام ومناقشة كل فيلم ، كما ينبغى أن يكون لكل منطقة تعليمية عدد كاف من الأفلام التربوية والسيكلوجية .

عاشرا — اقامة المعارض التعليمية : المعارض التعليمية الدورية من الوسائل التى يستمد منها المدرسون كثيرا من التوجيهات الفنية ، ففيها يشاهد المدرسون وسائل الايضاح المبتكرة من تجارب ونماذج وخرائط ولوحات وأفلام ورسوم مما يوسع أفقهم ويثير حماستهم ، كما يلاحظون كيفية تنظيم المعروضاتوترتيبها بطريقة فنية ، ويقفون على أوجه نشاط التلاميذ فى المدارس الأخرى ، كالنشاط الصناعى والزراعى والفنى .

وينبغى أن يسهم المدرسون فى كل منطقة فى اقامة هذه المعارض المحلية .

اعداد الموجه الصالح :

لما كان نجاح أى اصلاح منشود انما يتوقف على مدى فهم القائمين به لهذا الاصلاح ، وايمانهم به وقدرتهم على تنفيذه ، فان اصلاح نظام التفتيش الحالى لن يتحقق حتى نعد الموجه الصالح الذى يستطيع أن ينقل التفتيش من مستواه الراهن الى مستوى التوجيه الفنى الذى رسمنا معالمه فيما تقدم . ومن الوسائل التى يمكن للوزارة أن تتبعها لبلوغ هذه الغاية ما يأتى :

١ — تنظيم دراسة خاصة للمرشحين لوظائف التفتيش تتيح لهم التعمق فى الدراسات التربوية والسيكلوجية ، وتنمية المهارات والكفايات اللازمة لعملهم كموجهين فنيين .

٢ — ارسال الموجهين فى بعثات صيفية الى الدول المتقدمة فى ميدان التربية لدراسة نظم التربية بوجه عام ونظم التوجيه الفنى بوجه خاص .

٣ — عقد مؤتمرات دورية للموجهين لتبادل الآراء ودراسة المشكلات التى تواجههم وايقافهم على كل ما يستحدث فى ميدان التربية .

UNIVERSITY COLLEGE FOR GIRLS

ANNUAL REVIEW

AIN SHAMS UNIVERSITY

No. 2 - JULY 1960

AIN SHAMS UNIV. PRESS

1960

CONTENTS

Page

Samaritan Religion and the Torah,
by Dr. Dorreya M. 'Abd al-'Al 1

مطبعة جامعة عين شمس ٤٦٧/١٩٥٦/٥٠٠

« تم ـ بحمد الله ـ طبع هذه الطولية بمطبعة جامعة عين شمس » فى ١٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٠ (٧ من نوفمبر سنة ١٩٦٠) .

رئيس المطبعة

يحيى احمد صالح

SAMARITAN RELIGION AND THE TORAH

by

Dr. Dorreya M. 'Abd al-'Al

Judaism is not the same as the religion of the old Testament, though we do see the origins of Judaism in tha post-exilic writings of the old Testament. Sameritanism of the present had its origins in the early post-exilic period (1). It is a plausible suggestion at least, that prior to the Jewish Samaritan schism, early Sameritanism was very like early Judaism. After the schism any inter exchange of religions beliefs and practices must have ceased.

Judaism we know developed in the Tannaitic (2) Amoraitic (3) and Geonic (4) periods into something like Judaism of today. Samaritanism too probably developed from what it had been at the time of the schism; but it is generally believed that the Samaritans have been very conservative and that any development which has taken place was not on a great scale. Certainly there has not been any development in Samaritanism similar to the Mishnah, Talmuds and Geonic Responsa of Judaism.

The Samaritans do not regard the Traditional Oral Law as on the same level as the written Law. This article will in fact attempt to examine the question as to whether the Samaritans have any of Oral Law at all. The Samaritans are like the Protestants in this respect that for them the Bible; (i.e. the Torah) is the word of God; whereas

(1) cf. Mantgomery "The Samaritans" p. 59 f.

(2) C. 100 B.C. — 200 A.D. The product of the Tannaitic period was the Mishnah compiled by Rabbi Judah Ha-Nasi C. 200 A.D.

(3) C. 200 A.D. — 500 A.D. The product of the Amoraitic period was the two Talmuds: The Babylonian Talmud and the Palestinian Talmud.

(4) C. 500 A.D. — 1000 A.D. During this period began the codifying of the legal opinions of the Babylonian Talmud which process went on along after 1000 A.D. and finally culminated in the authoratatine Shulhan Arukh of Joseph Caro of the 16th century.

the Jews like the Roman Catholics do not consider the Bible as sufficient by itself but regard the Oral Law (or in the case of the Roman Catholics the tradition of the Church) as on the same level as the Bible.

The Samaritan Bible is the Torah and is the same Torah as the Jewish. It is however a different recension from the Jewish. The differences fall into several categories. In the first category there are readings in the Samaritan Torah which are probably better than those in the Jewish Torah, since scribal error has led to corruption in the latter; in some such cases the Samaritan readings are supported by the LXX (1).

The second category of differences are cases where the Samaritan text has amplified the Jewish Hebrew either by harmonisation of parallel statements (e.g. cf. the Numbers XIII 2-33 account of the spies and that in Deuteronomy I 23-29); or the Samaritan has in Exodus IX 1, 12 when God tells Moses to go to Pharaoh and say such and such, repeated the message as delivered by Moses; where as the Jewish Torah merely stated that Moses went in to Pharaoh and said (2) what he had been told to say, without repeating the message verbatim.

This second category of differences between Samaritan and Jewish Torah shows that the Samaritan Torah represents a secondary recension which sought to fill out imagined gaps. The harmonisation and the amplification of the Hebrew text as seen in the Samaritan racension perhaps owes something to idea that God's word must in no sense be lacking, but be perfect (3).

The third category of differences refers to the central Samaritan claim that Mt. Gerizim is the divinely chosen site of the Sanctuary. The differences between the Samaritan and the Jewish texts in this general category are of two types. First whereas in Deuteronomy in the Jewish Torah we find frequent reference to the place which God shall shoose for His worship, in the Samaritan Torah in such cases we find "the place which God has chosen (4)"

(1) e.g. Deut. XXXII 35.
(2) cf. Ex. IX 12.
(3) cf. Abu'l Fath Annales Samartani ed. Vilmar Gotha 1865 p. 94 f.
(4) cf. Deut. XII 5. 11, 14, 18, 21.

The Jewish Torah makes Moses look forward to the choosnig of some as yet undefined place for God's Sanctuary. When the hook of of Deuteronomy was discorered (1) in the reign of King Josiah (2) of Judah in 627 B.C. Jerusalem was understood to be the place which Moses had been looking forward to being chosen. As in well known many sanctuaries (3) bad existed prior to this and worship at them had not previously been condemned except perhaps in the reign of Hezekiah (4).

However from the time of David and Solomon. Jerusalem (5) had been the royal sanctuary par excellence. Deuteronomy seemed to confirm Jerusalem's prestige, and as a result all other sanctuaries in Judah and in the Northern territory were suppressed (6).

The Samaritan argument has always been that God would not have told Moses to tell the people to offer sacrifices and to bring tithes etc. unless he told them where to bring them (7). The Samaritans maintain that Mt. Gerizim had been chosen to as the Holy Place. It was known to the Patriarchs, the Samaritans make it the mountain on which Abraham was prepared to sacrifice Isaac (8). This is probahly as convincing as the Jewish. claim (9) that the site of the 'Akedah was Mt. Moriah at Jerusalem.

It is usually asserted that the Samaritans altered the the Deuteronomic phrase the phrase "the place which God shall chose" to "the place which God shall chose". Actually if Deuteronomy was written in the northern kingdom in the eighth century B.C. it is possible that the original reading was "the place which God has chosen," and

---

(1) cf. Oesterly and Robinson. A History of Israel vol. I. p. 418 f. and p. 425.

(2) cf. Ibid, p. 392.

(3) cf. II kings XXIII 13, also of Oesterley and Robinson, A History of Israel, pp. 316 and 323 (Ebjah thought protested against the iatroduction of the worship of the Tyrian Baal in Israel complained that the people had thrown down the Altars of Yahweh, G. I Kings XIX 10, 14.

(4) cf. II Chronicles XXX 13 f. and II Kings XVIII 4.

(5) cf. II Samuel XXIV 25, and ch. VI 16 f and II Kings, VIII 1 f.

(6) cf. II Kings XXIII passim, and cf. also Oesterley and Robinson, Ibid ; pp. 420 - 421.

(7) Abu'l-Fath, Ibid p. 94 f.

(8) cf. Gen. XXII 2.

(9) J.E. Vol. 9 Moriah p. 17.

referred to Mt. Garizim. After Deutéronomy came to the Southern kingdom logic would demand that if the phrase was to refer to Jerusalem a Jebusite city with no Israelite associations. until time of David, that it must read "shall chose" (if Deuteronomy was supposed to have been written hy Moses).

In Deuteronomy Ch. XXVII[5] the Samaritan Bihle makes Moses instruct that an altar was to he built on Mt. Gerizim. The Jewish Recension of Deuteronomy XXVII[4] reads instead Ebal Although wen the Jewish Bible makes Ehal the mount of cursing and Gerizim the mount of blessing Deut. XXVII[2] ; the Old Latin Vession has in Deut. XXVII 4 the same reading Gerizim as the Samaritan.

The most notable difference between the Samaritan and Jewish recensions of the Torah is the so-called extra Samaritan Tenth Commandments. The Samaritans divide up the Ten Commandments of the Jewish Torah(1) so that they number only nine. Actually their division is an old one attested in both Jewish and Roman Catholic tradition except that the latter divide the official Jewish and Protestant Tenth Commandment (the ninth according to the Roman Catholic and one form of Jewish traditional enumeration) into tow(2). The Samaritans do not do this but supply a new tenth commandment of their own. This Samaritan Tenth Commandment is drawn from Deuteronomy XVII $^{2-8}$ (Samaritan reading Gerizim for Ebal).

It is usually understood that the Samaritan Tenth Commandment is a sort of example of harmonisation of one part of the Torah with another. At the and Ex. 20 i.e. 24-26 reference is made after the ten Commandmants to the building of an altar of earth to offer sacrifices to God where soever he reveals himself (3). The Samaritan noted the apparent discrepancy hetween the idea of building altars in various parts of the country as suggested by Ex. 20[24] and the Deuteronomic regulation that offerings should be made only at the place which God chose (4).

---

(1) cf. Ex. XX 1-17 and Deut. V 6-21.

(2) cf. Samaritan Decalogue by J. Bowman and Talmon, " Bulletin of the John Ryland Library " Manchester, March 1951, p. 220; for tables of the different ways of dividing the Ten Commandments see ibid., pp. 222-223.

(3) cf. Ex. XX 24.

(4) cf. Deut. XII 5 etc.

Now in Deuteronomy XXVII 4, 5 we have the command, according to the Samaritan recension to build an altar on Mount Gerizim, (Jewish version Ebal). The Samaritan version in Ex. 20 ^{24} changes the statement about building an altar wheresoever God reveals himself to building an altar where God had chosen. To be Samaritan the Law was uniform, God had chosen one place for worship, an alter was to be built at Gerizim (1) therefore Gerizim must be the place which God had chosen for this worship.

It was only reasonable to expect that God would tell men where to worship him, and therefore the Samaritan inserted Deuteronomy XXVII $^{4-7}$ as the final commandment telling the place where God was to be worshipped. It would fit in all the better since "Exodus XX ^{24}" went on to tell where sacrifice was permitted and both Ex. XX ^{25} and Deut XXVII $^{5-6}$ say that the altar is to be made of stone unworked by a tool. The Samaritan did not understand the source criticism of the Torah. but he may have been carrying on what had been the old Northern Kingdom tradition that Gerigim was the place to worship God.

The Qiblah is towards Gerizim. We know from the Book of Daniel VI 10 that the Qiblah for the Jews was towards Jerusalem (2).

The Samaritans have a Creed (3) which in recited in private prayer accompanying ablutions before public prayer in the Kanisah. The Creed is also repeated at the beginning of each service. The Creed is of 5 points :

1. The belief in one God.
2. The belief in the one Prophet Moses.
3. The belief in the Torah.
4. The belief in the place to worship God.
5. The belief in the Day of vengeance and recompense.

(1) cf. Deut. (Samaritan reading) ch. XXVII 45.

(2) cf. The book of David is usually assumed was written in the middle of the 2nd. century B. C. since the Samaritans had a temple of their own on Mt. Gerizim from the 4th. century B. C. It is perheps safe to assume that by the 2nd. century B. C. they too had a Qiblah i.e. that they prayed facing Jerusalem.

(3) cf. J. A. Montgomery, The Samaritans, p. 207, also cf. J. Bowman's article, Faith in Samaritan thaught, a paper delivered in March 1956 to the Society for the Study of Theology, Oxford meeting. This paper is to be published in September 1957 in John Ryland's Bulletin, Manchester.

The Creed is old. The Jewish Tractate on the Kuthim (Samaritans)(1) seems to mention the last two points ; the Tractate Kuthim says when shall we receive them (i.e. within the Jewish community), and answers when they give up faith in Mt. Gerizim and confess the resurrection of the dead(2) The last article of the Samaritan Creed merely mentions belief in the Day of Vengeance and Recompense, saying nothing of the Resurrection.

The Samaritans however do believe in the Resurrection. Proof of the Resurrection is found by them in God's curse on Adam(3) " Dust thou art and to thy dust (Samaritan reading) thou shalt return ". (i.e. at the Day of Resurrection) so they teach their children(4).

The Samaritans stress belief(5). The Jews do not stress belief except in the one God and the Resurrection. Judaism stresses practice of ritual acts founded on the Law-Samaritanisim also stresses practice but only of the 613 commands and Prohibitions in the Law.

The Samaritans keep the same festivals as the Jews, but their method of observing them is more biblical. Their Passover ritual is actually earlier than that of the P Code in the Torah and resembles rather that of Deuteronomy(6).

---

(1) For a translation into English of this Tractate see J.A. Montgomery, The Samaritans, pp. 196 - 203.

(2) Article 28 of the Tractate Kuthim, quoted " when shall we take them back, when they renounce Mt. Gerizim and confess Jerusalem and the Resurrection of the dead. From this time forth he that robs a Samaritan shall be as he who robs an Israelite ".

(3) cf. Gen. III.

(4) cf. Malef.

(5) cf. e.g. the Samaritan Catechisim called the Malef which is taught to Samaritans children. The Malef Ms. (G) 1169 has been discussed in J. Bowman's paper. The Fourth Gospel and the Samaritans which is being pubhished in the Bulletin of the John Rylands library, September 57.

(6) cf. Deut. XVI 1 - 8. For description of the Samaritan Passover cf. J. A. Montgomery ibid., pp. 38, 39. Our contention that the Samaritan Passover is nearer Deuteronomy XVI is that the Samaritan Passover cannot be sacrificied and celebrated except as a congregational function on Mt. Getizim. The Deuteronomic Passover was not to be sacrificied withbn any of they gates, G. Deut. XVI 5 but only at the place which the Lord choses (Samaritan reading) This the Samaritans do. When they cannot find access to the sacred Mountian, they had a service in the town but it was not and is not sacrificial. cf. cowley. The Samaritan liturgy, vol. I, pp. 167 - 201 for these special prayers, cf. also I. Lerner's Doctorate thesis on the Samaritan Passover Liturgy ; Leeds 1956.

The Jews however regard Passover as a domestic festival celebrated at home. This they have done since at least new Testament times, cf. e.g. Mark XIV 17 f. The Passover lamb would be slain at the temple sacrificially but taken home to be cooked and eaten. Leviticus XXIII 5 f. does not say that the Passover had to be celebrated publecally and eaten at the chosen place as did Deuteronomy XVI 7.

The Samaritans at three of their festivals (Unleavened Bread, Pentecost and Tahernacles) make a pilgrimage (1) to Mt. Gerizim, the question is to what extend these festival pilgrimages are survivals of early Israelite religion or are much indebted to Muslim influence ? However such pilgrimages seem to be commanded in the E Code and Deuteronomy (2).

The Samaritan Calendar is in the power of Samaritan priests (3) who issue it twice yearly in the Spring and then in the Autumn. While the Samaritans keep the same festivals as the Jews, the Samaritans have in addition two minor festivals which have almost fallen nto aboyance among the Jews. These Festivals are called by the Samaritans Zimmuth Pesah and Zimmuth Sukkoth (4) and are sixty days before Pesah and Sukkoth respectively.

If we compare with the Jewish Calendar, we find that sixty days before Pesah the 14th. Nisan is the 15th. of Shebat which is the Jewish New Year for Trees (5) ; sixty before Sukkoth brings us in the Jewish Calendar to the 15th. of Ab which according to Mishnah To'anith 4 10 was once (6) a very joyful Jewish Festival.

Megillath Ta'anith notes that no mourning was to be permitted on 15th. Shebat and 15th. Ab. The Samaritan Festivals of Zimmuth Pesah and Zimmuth Sukkoth are therefore old and are not merely Samaritan innovations. These Festivals mark the beginning of the preparation for the Spring and Autumn Equinoxes. It would be argued that though these Festivals are old, the Samaritans have grafted on

---

(1) The Samaritan Festival Liturgy underwent considerable development from the 14th. century on, up. till then the Samaritan Liturgy for ordinary. Sabbath and Festivals was basically the same except that for the Festivals a few additional pieces were added, G. e. g. Ms. V. 3 the earliest complete Samaritan Liturgical Ms. However the Samaritan Liturgy now runs to two volumes whereas until the 14th. century the complete Liturgy was that comprised in the first 92 pages of the first volume of cowley's two volumes Samaritan Liturgy.

(2) cf. Ex. XXIII 14, 15 Deut. XVI 16.

(3) cf. Montgomery, The Samaritans, p. 312.

(4) cf. Cowley. The Samaritan Liturgy, O. U. P. 1959, vol. II, Glossary, p. LXVII.

(5) cf. Mishnah Rosh ha Shanah I.

(6) cf. J. E. Vol. VIII, pp. 427 - 428. (The Magillath Ta'anth was composed at the beginning of the Christian era, probably about 7 A.D.)

to them their association with the fixing of the calendar and its promulgation by the priests ; on the other hand the nearness of these Festivals to the Equinoxes perhaps shows that they always had some significance for fixing main events in the Samaritan Festival year(1)

We note that they are called Zimmuth Pesah and Zimmuth Sukkoth ; Zimmuth means conjunction ; i.e. conjunction of the sun and moon in the constellation dragon. The Samaritaes in the liturgy of Zimmuth Pesah commemorate the meeting of Moses and Aaron(2) in Egypt after Moses return from Midian.

For the Samaritan there is only one prophet Moses(3) who is the seal of the prophets.

The Samaritans claim that their priests have retained the secret of the calculation of the calendar whish had been given to Adam by God(4). One thing we can say for certain is that the Samaritan priests have always tried to keep the secret of fixing of the calendar to themselves ; however Professor Robertson of Manchester in the John Rylands Bulletin of 1939 has demonstrated that the Samaritan calendar is calculated by the priests with the help of al-Battani's tables. The basic element in the Samaritan calendar is the calculating of the conjunction of sun and moon at the Dragon point in Spring and Autumn and fixing on the basis of this and al-Battani's tables, the calendar for the next six months.

(1) The Samaritans have 7 Festivals :

a. Passover, the moth of Nisan.

b. Mazzoth (Unleavened Bread) which starts at the same time as Passover but the feast of which celebrated seven days afterwards.

c. Pentecost (Shavuoth) fifty days from the morrow of the Sabbath after the Passover.

d. The beginning of the seventh month (Tishri).

e. Yom Kippur (day of atonement) tenth Tishri.

f. Tabernacles starting from 15th. Tishri. 7 Mo'id Ha-Shemini, being the 23rd. of Tishri.

(2) cf. Ex. IV 27, 28.

(3) cf. The Samaritan Cread referred to above. " seal of the prophets is found in the Samaritas Liturgy as a discription of Moses ".

(4) cf. J. Bowman, Transcript of the original Text of the Samaritan Chronicle Tolidah, p. i. Leeds, 54.

The Samaritans believe in the Day of Vengeance and Recompense. The Day of Vengeance and Recompense is found mentioned in the Samaritan Bible Deut. XXXII[35]. The Hebrew Jewish Bible reads "To me belongs Vengeance and Recompense" ; no mention is made of a day of Vengeance ; however the LXX reads "day of Vengeance instead "to me belongs Vengeance".

In the time after the schism the Samaritans looked for the return of Moses or one(1) like Moses(2), to be God's agent at such a Day of Vengeance.

There is reason to believe that for long some sects of the Samaritans did not believe in immortality, but hoped for the return of Moses or the coming of the Restorer like him and his righting thier fortunes in this world.

(1) cf. J. Bowman's article in the Journal of Jewish Studies. Vol. VI No. 2 A 55 p. 67.

(2) cf. Daut. XVIII 18.